



العريس والجنّي  
The Bridegroom And The Devil  
(مجموعة قصصية)  
Short stories  
الطبعة الأولى  
نوفمبر-2005  
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف  
الطبعة الأولى  
2005  
كفر قاسم

بقلم: نعمان اسماعيل عبد القادر

الفهرس

	4.....	المقدمة
6	.....	الهوية الضائعة
13	.....	الضميرُ المفقود

18	شباكُ التذاكر.....
22	العسْمَلِيَّةُ.....
29	الكاميرات الخفية.....
36	فلسفة أرنب.....
41	المنبر الحر.....
45	طفلة في تل أبيب.....
53	قوانين اللعبة.....
59	زفاف الضحية.....
64	مدينة النحاس.....
78	العريس والجنّي.....
84	المعلم الجاني.....
91	حقيبة السفر.....
100	الغريب.....
105	الإشاعة.....
	تعليق على قصة العريس والجنّي.....
	111
	تعليق على قصة حقيبة السفر.....
	115

## المقدمة

أضع بين يدي القراء الأعزاء المجموعة القصصية الأولى تحت عنوان "العريس والجنّي"، وكنت قد نشرتها جميعاً في

الصحف والمجلات العربية.. وذلك بعد إلحاح الكثير من القراء والأصدقاء من أجل جمع هذه القصص في كتاب واحد وشامل يسهل عليهم قراءتها ومراجعتها مرة أخرى ويضمن لهم عدم ضياعها.. وتلبية لرغبتهم ومتطلباتهم بعد أن أدركت أن الوقت قد أصبح مناسباً والظروف مهيأة، فقد بذلت قصارى جهودي وشرعت في جمعها حتى خرجت إلى النور وحيز الوجود في الحالة التي هي عليها الآن.. وكلي رجاء وأمل أن تليها مجموعات قصصية أخرى تلي احتياجات القراء وتفيدهم ثم ترشدهم لاختيار طريق الصواب.

ولقد استوحيت عنوان هذه المجموعة القصصية من القصة الأولى التي كتبتها أول مرة إلا أنني لم أنشرها إلا في وقت لاحق.. قصة لم أدرك حقيقة مغزاها وجمال جوهرها إلا بعد أن لاقيت ترحيباً واسعاً وردود فعل إيجابية من القراء الأفاضل وسمعت منهم تعليقاتهم عليها.. وهي تعكس الحال الذي تعيشه أمتنا العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وتضعها بسبب الإيمان بالخرافات والمعتقدات التي تنافي العقل والفهم السليم والدين..

وفي حقيقة الأمر يجد القارئ هذه القصص، وهي عبارة عن قصص قصيرة أو "أقاصيص" - كما يحلو للبعض تسميتها- قد كُتبت بأسلوب شيق يسهل على الجميع فهمه، إلا أنها تتضمن المعاني والعبء الكبيرة.. وتحمل كل قصة رسالة تعالج ظاهرة أو ظواهر قد تكشف عيباً هنا أو نقصاً هناك.. وأحداثها مستوحاة من نسج الخيال البشري إلا أنها صور أو رسومات قريبة كل القرب من الواقع الذي يعيشه مجتمعنا العربي في دولة إسرائيل حتى تكاد تلامسه.. هذا المجتمع الذي يحاول الأفراد فيه معظمهم المحافظة على هويتهم العربية وانتمائهم لدينهم والتصدي لمحاولات الغزو الفكري

الأجنبي والتقليد الأعمى.. في الوقت الذي يحاولون فيه التوفيق بين هويتهم والانتماء لدولتهم والمطالبة بالمساواة في الحقوق..

ويستطيع كل قارئ أن يقف على القصة ويحللها كيفما يحلو له وله أن يعلق عليها من الزاوية التي يراها مناسبة من غير تجريح ولا تشهير بأحد مع ومراعاة حدود الآخرين ومشاعرهم..

وأخيراً لا يسعني إلا أن أدعو الله العلي القدير أن يوفقني في عملي ويلهمني طريق الصواب إنه هو السميع المجيب..

(1)

### الهوية الضائعة

كان جريه الذي يشبه جري الحصان القوي الأصيل، على الطرف الأيمن من الشارع الرئيس العريض المحاذي لقريته، معتدلاً شيئاً ما. وكانت السيارات على اختلاف أنواعها وألوانها واختلاف مصادر صناعتها، تسير في ذلك الشارع بأقصى سرعتها من كلا الاتجاهين المتجاورين، متجاوزة بذلك السرعة القانونية التي يسمح بها القانون، وكان كارثة طبيعية أو بشرية ستحدث في هذا اليوم الرامض، وكانت تجر معها كتلاً هوائية ساخنة لافحة حارة..

كان ذلك عصر يوم الاثنين، أول اثنين من شهر تموز المألوف بشدة حره.. المعهود بخشونة ظرفه.. الشهر الذي تنضج بحرارته ثمار التين والعنب والصبر والرمان.. كان جريه أمله الوحيد في المساهمة في التخفيف من سمته ووزنه الزائدين. ارتدى معطفًا شتويًا أسودًا عملاً بنصيحة سمعها مساء البارحة من بعض زملائه عندما كان يحتسي القهوة في "المقهى البلدي"، وانطلق إلى الشارع حتى يتصبب العرق من جسده الخشن، فتخرج نتائج جريه الطيبة بثمارها الإيجابية المبكرة.. واعتاد أن يقطع كل يوم مسافة عشرة كيلومترات ذهابًا وإيابًا دون أن يستريح. ومع أنه يعلم أن هذه الرياضة مملّة وخصوصًا

## 7

إذا كانت بصورة فردية، وهي تحتاج إلى صبر وجهدٍ عظيمين، إلا أنه واطب على ممارستها من شهرين، متسلحًا في جيبه بمسجل صغير تشنف أذنيه سماعتان دقيقتان طربًا مسرورًا. لم يكن يتوقع ما سيحدث معه في هذا اليوم، ولم يكن يشغل تفكيره إلا حديثه مع خطيبته "سعاد" التي ابتسمت في وجهه ابتسامه عريضة عذبة عندما قدم لها خاتمًا ذهبيًا آخر، بمناسبة عيد خطوبتهما الثاني، كان قد اشتراه لها من أحد الصياغ المشهورين من سوق الذهب في مدينة القدس العربية، أثناء زيارته للمسجد الأقصى وقبة الصخرة الشريفين يوم السبت الماضي. وكلما اجتازته سيارة من سيارات أهل قريته الذين يعرفونه، أرسل من فيها إليه تحية سلام عبر أبواب السيارة.. فيرفع يده اليسرى ردًا لهذه التحية..

ملامحه العربية بارزة للعيان، وكانت بشرته السمراء التي أحرقتها أشعة شمس هذه البلاد الحارة، أكبر معلم من

معالم العرق العربي.. ثم لو لم يكن الأمر كذلك فإن هيئته تدل على ذلك.. ورغم معرفته بما يحدث في القرى والمدن الواقعة خلف الجبال الشرقية والتي لا تبعد عنه سوى بضعة كيلومترات، أو تزيد قليلاً، وإدراكه إدراكاً تاماً بتعكّر سطح الأجواء السياسية المكهربة والممغنطة وتلوّثها من هذا وذاك، إلا أنه أصر في نفسه بعدم كسر حاجز الصوم والحمية..

8

فتابع مشواره آملاً أن يحقق معظم أهدافه التي تخيلها. وما أن قطع مسافة ثلاثة أميال، إذا بسيارة شرطةٍ تجازته بسرعة غير قانونية. توقفت على بعد خمسين متراً منه، على جانب الطريق، ثم نزل منها ثمانية رجال من فرقة مكافحة الإرهاب بكامل عدتهم وعتادهم. ثم انتشروا بسرعة البرق يمنةً ويسرةً، وانبطحوا على بطونهم أرضاً مصوبين أسلحتهم نحو الشاب " صاحب الملامح العربية".. كان أحدهم يحمل في يده اليسرى ميكرفوناً، وقد نادى بأعلى صوته وباللغة العربية الدارجة:

- وقف مخلّك ، ولا تتخرك!

توقف الشاب صاحب الفرائص المرتعدة والمنتفضة وهو مشوش البال، مرتبك الحال، بعد أن توقفت حركة السيارات في الشارع، الذي تم إغلاقه من كلا الاتجاهين بحواجز الشرطة، وتوقفت نبضات قلبه، فتسمر في مكانه وأخرج بطاقة هويته الزرقاء اللون، وصاح ملوحاً بها في يده وباللغة العبرية الفصحى:

- أنا عربيّ إسرائيليّ ، وها هي بطاقة هويتي الزرقاء.

عندها أطلقوا على جانبه بضع عبارات نارية تحذيرية، وصاح الرجل فيه صيحةً فيها نبرة الغضب:

- أنتَ واخذ كراب ، إشلخ جاكيتك ، وارفع إيديك ، وخطهم

على رَقَبَتِكَ!

خلع معطفه دون أن ينبس بكلمة، وألقى به على الأرض، ثم فعل مثلما أمره العسكِرِي طَائِعًا صَائِعًا. وتابع قائلاً:

- اِشْلُخْ قَمِيصَكَ وَبَنْطَلُونَكَ وَنَامْ عَلَى الْأَرْضِ..

ففعل كما أمر دون أن ينبس بكلمةٍ واحدةٍ. واستلقى عاريًا على الأسفلت الملتهب حراً، فأحس برجةٍ كهربائيةٍ عنيفةٍ ساخنةٍ تنتشر في جميع أرجاء جسمه وانتفض انتفاضةً قويةً كادت تقطع نفسه. ثم ألقى نظرة خاطفة نحو اليمين ونحو اليسار، فألقى البشر ينظرون إليه من بعيدٍ، وقد نزلوا من سياراتهم لاستطلاع الخبر، فشعر بقرب أجله وأنه سوف يذبح كما تذبح الشاة. وقرأ الشهادتين والمعوذتين، وقال في نفسه: "ما الذي تريده مني تلك الكلاب المسعورة.. إن الألم الذي أشعر به الآن في جسمي لا يستطيع أن يتحملة أحد غيري.. أهكذا يعامل البشر؟ أأست إنسانًا يتالم؟"

ولما سمع الصوت المنبعث من الميكروفون يقول له: "إقلب على بطنك ولا تتحرك بالمرة!" أيقن أنه سيذبح بسكين غير حادٍ من خلف رقبتة، عقابًا له على ارتكابه جريمة "الجرمي" وعدم دفعه ضريبة المرور من هذا الشارع.. لذلك فقد هباً نفسه استعداداً لملاقاة ربه، وللالتقاء بقافلة الشهداء.. ثم قال في نفسه مرة أخرى:

"ماذا الذي يريد مني هؤلاء الوحوش.. ولماذا يعذبونني؟ لو كان هذا الألم فيهم لما تحملوه لحظة واحدة.. على كل حال ما علي إلا الصبر، والصبر مفتاح للحياة، والألم بلا صبر لا طعم له.. وكأس من الألم المر في الحياة خير من ألف كأس حياة

بلا ألم، والإنسان لا يتعلم إلا بعد أن يتألم.. وقد يكون الألم عميقاً ولكن الإرادة تشفي الجروح.. تجمد في موضعه منتظراً الموت لحظةً بلحظةٍ وهو مغمض العينين، مصفر الوجه لا يدري ماذا يفعل..

حين أدرك أن هويته الإسرائيلية لم تشفع له ولم تعد تجد نفعاً فقد استشفيت في مخيلته صورة أمه المرحومة التي افتقدها منذ خمس سنوات تقف بالقرب من رأسه وتقول له :  
- "إنهض يا بني من مكانك ولا تتصرف مثل الأطفال الصغار.. قف على قدميك وارفع هامتك وكن رجلاً مثلما عهدتك!"

فمدَّ يده نحوها ولسان حاله يقول :  
- "ماما الله يخليكي احميني بدهم يذبحوني! وأمامه وأمامه..."

وما كاد يتم جملته هذه حتى اختفت بسرعة دون أن تستجيب لاستغاثاته ونداءاته، وشعر بنفسه وحيداً في قارعة الطريق أمام واقع جديد في عالم قديم لا حول له ولا قوة وبقي جامداً مثل العصافير

## 11

التي تقف أمام الحية منومةً، وهي تدرك أنها ستلقفها بعد قليل فلا تطير.. أو كالفئران الصغيرة أمام القط الذي يسحرها قبل أن يثب عليها للافتراس.. أو كالنعامة التي تدفن رأسها في التراب قبل أن يقترب منها الأسد الجائع ولم يفكر في الفرار أبداً من هذا المكان لأنه يعلم ألا جدوى من محاولة الفرار.. وزخات رصاصات الموت سيتحصده، كما حصدت الكثير من قبله. فقد أدركته عربة مجنزرة صغيرة في مثل حجم الخروف الصغير، وذات ذراع حديدي، تحركه في جميع الاتجاهات، تسير بجهاز تحكّم من بعد. فأحس بأصابعها تقبض



على رجله اليمنى وترفعها إلى أعلى ثم تلقيها على الأرض، وتنقل إلى اليسرى فتخطها بالأرض. ولما تفحصته عضواً عضواً، قبضت على المسجل الصغير "فجعنته" ثم عادت إلى قاعدتها بسلام ..

مضى على تلك الحال أكثر من ساعة، ورأى رجال الشرطة يتقدمون نحوه ويقربون منه، أذنوا له بالنهوض وبالوقوف على رجليه وارتداء ملابسه. تقدم منه أحدهم - وكان أطولهم قاماً وأضخمهم جثّةً - يبدو أنه ضابطهم فصافحه .. طلب منه تسليمه بطاقة هويته "الزرقاء" واللحاق به إلى سيارة الشرطة من أجل فحص ماضيه الجنائي عبر الجهاز اللاسلكي. ولما تيقنوا من نظافته أمنياً وخلوه من الأمراض الجنائية، أخذوا يتهامسون فيما بينهم ثم طلبوا منه الصبح

## 12

والغفران على فعلتهم، وسمحوا لطوابير السيارات المنتظرة بالتحرك في الشارع من كلا الاتجاهين، أذنوا له بالانصراف، ثم ركبوا سيارتهم وغادروا المنطقة إلى مكان مجهول ثم ابتلعتهم الدنيا. نفذ عن قميصه غبار الطريق بعد أن وضع في جيبه هويته "الزرقاء"، ثم نفذ عن نفسه آلام الطريق، وعاد إلى بيته ماشياً وهو شارد الذهن غارب الجحى حاملاً على كتفه الأيمن معطفه الأسود تاركاً خلفه مسجلاً محطماً...

13

(2)

### الضمير المفقود

صبيحة يوم الأحد، أول أيام الأسبوع، في تمام الساعة التاسعة وفي تلك الشرفة الواقعة في الطابق الثاني في عمارة الحاج أبي علي الجزار المطلية على شارع "عمر المختار"، الاقتصادي الشهير الذي تتجمع في نهاره كل يوم كتل بشرية مختلفة.. ألوانها كثيرة، أحجامها متفاوتة تتحرك بحركات لا تعرف الانتظام، من أجل التسوق من محلاته التجارية المختلفة المنتشرة على جانبيه أو من أجل المرور من تلك المنطقة على أنها تقلل على المارة مسافة دربهم وتوفر عليهم زمناً وعناءً مثلما تتجمع في وسطه الكتل الحديدية ذات العجلات المطاطية متخذةً وجهتها نحو الشرق ونحو الغرب تحمل بضائعها المختلفة، وهي تنفث في أجوائه كتلا كثيفةً من الدخان الأسود السام فتلوته، وتنطق مجرّكاتها نطقاً مبهماً لا معنى له، وتبعث أبواقها صغيراً ينذر المارة من خطر الموت والانتباه عند قطع الشارع، وتحدث عجلاتها بين الفينة والأخرى أزيزاً ساحقاً يلفت الانتباه ويثير الاهتمام.. كان يجلس موسى على كرسيه الخشبي العريض ويتصفح إحدى الجرائد اليومية التي اقتناها من بائع الصحف المتجول بثلاثة قطع نقدية صغيرة وإلى جانبه منضدة صغيرة وضع عليها فنجان كبير من القهوة

14

التركية التي أحبها، يتناوله كل دقيقة أو دقيقتين فيقرّبه من شفّتيه ويرشّف منه رشفةً ثم يعيده إلى مكانه الأول.. وكان الجوُّ ربيعياً دافئاً يبعث في النفوس نشاطاً ويزيدها حيويةً ونضارةً..

كان يرى من شرفته كل قاصٍ وكل دانٍ يمرّ من هذا الشارع، بحيث لا تفوته حادثةٌ صغيرة ولا كبيرة هنا أو هناك تحدث مع كل جسم يتحرك إلا أحصاها ويكون أول العارفين بها. وفي بعض الأحيان كان يرقب الناس في اليوم الواحد مدة ساعة أو ما يزيد على ذلك بقليل لأن الشرفة أشبه ما تكون بأبراج المراقبة العسكرية.. ولم يكن هذا الرجل يتوقع الأحداث أبداً. بل كان يراها ويتفاعل معها كأنه يشاهد فيلماً سينمائياً أو يقرأ روايةً واقعيةً وأحياناً يفعل انفعالا سرعان ما يتبدد.. قرأ العنوان الرئيس الذي تصدر هذه الصحيفة وتناولته بالشرح مع الصورة والتحليل، وكان كما يلي: ارتفاع عدد ضحايا الطائرة الأمريكية المنكوبة وفرق الإنقاذ تعثر على صندوقها الأسود على بعد ثلاثة كيلو مترات من مكان تحطمها.. وتشكيل لجنة رسمية للتحقيق في ملابسات الحادث..

قرأ الخبر وقد تذكر رحلته الأولى بالطائرة إلى مدينة الأنوار "باريس" قبل سبع سنوات حيث احتجز في المطار قرابة الساعتين، وقد حققوا معه لمجرد كونه عربياً ليس إلا، وفتشت أمتعته ثم أخلي

15

سبيله.. وجمدت عيناه على كلمات الصحيفة وأسطرها دون أن يقرأ شيئاً منها.. وساقه خياله إلى بحر الذكريات الجميلة، إلى إحدى مضيغات الطائرة ذات البشرة البيضاء.. والشعر

الأشقر، والوجه الحسن والعينين الفيروزيتين حين ابتسمت في وجهه ابتسامة سماوية عذبة وقال في نفسه: "حقًا إن الله جميل يحب الجمال.. والجمال نعمة من الله لا يهبها إلا لأصحاب النفوس الجميلة والضمائر الحية والعقول المنيرة، ولا بد للجمال أن ينبج جمالاً وعليه يصبح المجتمع كله جميلاً ومن لا يملك جمالاً عليه أن يضحي من أجل جمال مجتمعه ويرضى بما قسم الله له وهذه سنة الحياة التي لا تتوقف".. ثم طلبت منه بصوتها الملائكي الجلوس في المقعد الأيمن وظل يراقبها طول الرحلة ويتأمل وجهها الفردوسي الساحر.. وعندما اقتربت منه وقدمت له شيئاً من الطعام، استنشق رائحة عطرها الفواح الذي صنع من شذا الأزهار الربيعية الجميلة..

تنبه من ذكرياته على هدير سيارة حمراء اللون كانت تسير بسرعة فوق إعتادية توجهت نحو المصرف المقابل لعمارة الحاج "أبو علي" ثم توقفت بجانبه، وفتحت أبوابها على جناح السرعة. نزل منها رجلان يلبس كل منهما قفازين ويتلثم بلثام أسود، يحمل كيساً ومسدساً، ثم يسطوان على المصرف ويعودان أدراجهما إلى السيارة،

## 16

لينطلق سائقها الذي ظل في انتظارهما للاختفاء في أزقة المدينة.. ولم تكن ملامح السائق غريبة على موسى، بل لم تكن لتخفى عليه هيئة بل وحركات الرجلين المثلثمين، إنهما من سكان الحارة القبلية ولكن...

وكما كان متوقعاً، اندفع زبائن المصرف إلى الشارع يصيحون صياحاً لا صدى له ولا معنى ممزوجاً بالخوف والفرع وقليلًا من الابتهاج المنكر.. صياحهم يبعث دلالات تشير إلى إعلام من لا يعلم.. وما هي إلا دقائق حتى احتشد جمع

غفير من المارة والمتسوقين يستطلعون الخبر الساخن قبل أن يبرد فيصبح تافهًا. وصلت سيارات الشرطة وتوقف أزيزها، نزل منها سبعة أنفار يلبسون بزاتهم الرسمية ذات اللون الأزرق الفاقع ودخلوا المصرف، لكنهم لم يخرجوا منه إلا بعد ساعة ونصف وهم يحملون معهم تقاريرهم التي جمعوها وملفاتهم التي فتحوها.. ليعودوا من حيث أتوا ، ويعود الناس لمزاولة أعمالهم وهم يتحدثون ويحدثون عن الحادثة.. وفي خضم هذه الأحداث رشف موسى من قهوته رشفةً أخرى وتابع تصفح جريدته .. وقرأ العنوان التالي: " دهس فتاة بسيارةٍ مسرعةٍ وفرار صاحبها دون معرفة هويته"....

17

### (3) شباك التذاكر

خرج "حكمت" من بيت صاحبه في تمام الساعة الثانية بعد انتصاف الليل، وهو ثمل يترنح في شوارع قريته ذات اليمين تارةً، وذات الشمال تارةً أخرى متخذًا وجهته إلى بيته الواقع في الشارع المحاذي لشارع "مسجد الرحمة" التابع للجماعة الصوفية السلفية.. خرج بعد أن تناول "وجبة دسمة" من تلك الوجبات التي حرمتها القوانين الدولية والشرائع السماوية كلها ، والتي يبتاعها المدمنون من شبابيك التذاكر المشهورة والمنتشرة في أنحاء القرية الأربع ، والتي لا تفتح إلا في ساعات المساء للزبائن الدائمين والمعروفين عند الباعة الثابتين.. ولم يذكر في حياته قط أنه ذاق طعمًا أطيّب وألذ من طعم هذه الوجبة الدسمة التي غذت بدنه وعقله وروحه . وكان قد أدمن على تناول الوجبات قبل سنتين فقط .

لم يكن يتوقع أبدًا أن يجد في طريقه تلك الفتاة الجميلة التي تركته وحيدًا بعد أن أدخلته فيما يسمى بـ "عالم الوجبات الدسمة" .. فتذكر الأعيبها وحيلها الخسيسة التي استعملتها حين أرادته أن يقع في شباكها ليصبح من زبائن شباك تذاكرها الدائمين، حتى يزداد عدد زبائنها فردًا واحدًا فيزداد به كسبها

18

وربحها. لقد كان بالنسبة لها صيدًا صالحًا ووافرًا. وتذكر مرادها ومرادتها له عن نفسه عندما غلقت الأبواب وقالت له هيت لك، فلبى النداء بلا استحياء، فغاص في بحر الغرام ثم كان غرامًا جميلًا وقال في نفسه يومها: "إنها أشهى امرأة في الدنيا، والمرأة إذا كانت رخيصة يستطيع الرجل أن يشتريها متى شاء وبдраهم معدودة وبلا عناء وقد تنتقل من وطن لآخر مثل الطائر الذي لا وطن له، أما المرأة الحقيقية فهي تلك التي تشارك زوجها في كل شيء دون أن تخرج لعمل آخر وتبقى في بيتها حتى لا تتعرض للفتن.. أه منكن أيتها النساء.. لقد أخرجتن آدم من الجنة" .. ولم يكن يتصور ظهورها بهذه الجرأة والشجاعة ووقوفها أمامه بلا خوف أو وجل أو تردد بعد أن فقد كل ما كان يملكه من أموال وأراضي وسيارات حتى فقد أصحابه العديدين الذين وزع عليهم من ثروته بسخاء ، وتقول له:

\_ ما الذي جرى لك يا "حكمت" ؟ لقد عهدتك رجلا قويًا، وعرفتك في صحة وعافية! لماذا أنت الآن في هذه الحال؟  
\_ أنت السبب في كل هذا أيتها الملعونة الشريرة . لقد كنت رجلا حقيقيًا، عندي المال والأولاد والجاه. ولكنك مجرمة لا تحملين في قلبك أية ذرة من الرحمة والشفقة، وما همك سوى جمع المال وإيقاع الشرفاء في شراكك، أيتها ال...القدرة..

19

لم يكن هذا في الحقيقة سوى طيف تراءى في مخيلته ، فصب عليه جام غضبه انتقاماً منها وترحمًا على حالته التي وصل إليها وعلى نفسه التي أصبحت لا تقاوم .. سار وهو يرتدي زياً بالياً تفوح منه رائحة نتنة ممزوجة برائحة العرق وقد تراكمت على حواشيه بقع من الأوساخ والزيت حتى أصبح أشبه بقطعة القماش التي تنظف بها محركات السيارات، إلى أن وصل إلى باب بيته فوجده مقفلاً. فتحسس جيبه بحثاً عن مفتاحه فلم يجده . ولكنه تذكر أنه فقد المفتاح منذ أسبوعين وأن الباب أصبح لا يفتح إلا برفعه قليلاً وشده إلى الخلف ثم دفعه إلى الأمام، ففتحه بهذه الطريقة ولكن بعد محاولات متكررة. وكانت الوجبة الدسمة التي تناولها قد نالت من قدرته الجسمانية مثلما نالت من قدرته العقلية والروحية..

دخل بيته وهو يهذي هذياناً غريباً ويتفوه بكلمات لا ينطق بها إلا أدنياء القوم وسفهاؤهم، مقفلاً الباب على نفسه خشية سماع صوت المؤذن لصلاة الفجر والتي لم يبق لموعدها إلا ساعة ونصف فيزعجه ويوقظه من نومه.. فقد شعر أن جسمه قد أصبح ثقيلًا جدًا ولا تستطيع رجلاه على حمله . وما أن ألقى بنفسه على سريره حتى بدأت فرائصه تتلوى وتضطرب وترتعد ارتعاداً مخيفًا ، ثم ارتفعت حرارة جسمه ارتفاعاً كبيراً جدًا.. فقد لقي تأثير الوجبة الدسمة

20

الحقيقي سبيلَهُ في جسمه فاستشاط في دمه وسرى في عروقه.. وما أن أذن المؤذن في مسجد الرحمة معلناً عن انبثاق فجر يومٍ جديدٍ حتى فاضت روحه إلى الباري عز وجل..

21

العريس والجنبي-  
مجموعة قصصية

(4)  
العُسمَلِيَّةُ

كانت الطائرة تحلق بنا في سماء تركيا، وكان المساء قد ألقى بنهار يوم الاثنين في حفرة الموت، وأنوار المصابيح الأرضية قد تراءت كأنها نجوم ساطعة.. وقبل أن تهبط بنا وتلفظنا في أرض المطار في إستانبول، قلت لصاحبي:

- أتدري يا هذا أن الأتراك قد حكموا بلادنا مدة طويلة لا يستهان بها، وتركوا أثراً كبيراً عليها وعلى حياتنا السياسية والثقافية وحتى على لغتنا العامية التي



نتخاطب بها.. وكانوا قد تركوا أثراً كبيراً في نفسية جدي  
بالذات؟

- وما هي حكاية جدك مع الأتراك، وما الأثر الذي تشير  
إليه؟

تذكرت جدي وابتسامته وأخذت أروي له حكاية جدي  
بتفاصيلها:

- كان جدي رجلاً معطاءً طيبَ القلبِ مُتديناً كريماً صادقاً  
وشريفاً. أحب الناس فأحبوه.. أجل العلماء إجلالاً كبيراً. لا زلتُ  
أذكره جيداً رغم رحيله عنا وعن الدنيا منذ أكثر من ثلاثة عقود،  
ولا زلتُ أذكر مشينته وهو يتوكأ على عصاه وكوفيته الشامية  
التي لم تفارق قمة رأسه كما وأذكر تلك الأيام الجميلة

## 22

التي قضيتها معه في صحنِ داره حينَ كانَ يطعمُ بقرتهُ  
ودجاجاته. كنتُ كلما زرتُه أسرعتُ لأسلمَ عليه وتقبلَ يدهُ  
المعطاءة التي كانَ يدسُّها في جيبِ عباءته فيناولني منها  
عشرة قروشٍ أو نصف ليرة.. ولا زلتُ أذكر لغته العجيبة التي  
لم أفهم منها إلا بعض الكلمات حينَ زاره أحد الشيوخ في مثل  
سنة في أصل ذات يوم، فتحدثنا بها طويلاً دون ما زللٍ أو كللٍ  
أو مللٍ وهما متلهفين في الحديث بها وكأنها كنز نزل من  
السماء.. أو ربما أرادا أن لا أفهم من حديثهما شيئاً.. فرأيتهما  
تارةً يحزنان جداً مطأطئي رأسيهما حتى ليكاد يغمى عليهما  
فيبعثان الشفقة في نفسي.. وتارةً يضحكان طويلاً ويقهقهان  
بصوتٍ ترتج له أركان البيت حتى لتكاد نياط قلبيهما وعنقيهما  
تتقطع من شدة الضحك ولما سألتُه عن جنس هذه اللغة  
التي يتحدثان بها، أجبني بفخر واعتزاز :

- هذه ، يا بني ، اللغة التركية التي تعلمتها أيام خدمتي  
في العسكرية زمن العثمانية.

- وما هي العسملية يا جدي؟  
- الدولة العثمانية، هي دولة الأتراك، الإمبراطورية  
العظمى، كانت قبل إسرائيل وقبل الإنجليز.  
- ومتى كنت في العسكرية؟  
- عندما كنت شابًا يافعًا، قبل الحرب العالمية الأولى،  
فقد كان

### 23

الناس جميعًا فلاحين بسطاء يعتمدون في حياتهم على  
تربية المواشي وزراعة الأرض بالقمح والشعير والذرة والعدس  
والحمص والسمسم وغيرها.. وبينما هم في حقولهم إذ جاء  
إلى قريتنا عسكري تركي من إستانبول، من الباب العالي  
مباشرة، يحمل فيه لنا فرماتًا لاختيار شاب من كل بيت  
للانخراط في الجيش لخدمة السلطان والدولة العلية التركية  
وسلمه للمختار..

كان الخبر قد انتشر بين سكان أهل القرية ، فوقع  
عليهم كالصاعقة. لأنهم يخافون كعادتهم من مثل تلك  
الفرمانات التي تأخذ منهم أجزاءهم إلى بلاد بعيدة للاشتراك  
في حرب لا ناقة لهم فيها ولا بعير، يموت معظمهم ولا يرجع  
من بقي منهم على قيد الحياة إلا بعد سنوات طويلة،  
فتنقطع أخبارهم.

وساعة وصول البلاغ في ذلك اليوم، لم يكن في بيتنا  
أحد سوى أنا وأبي الذي استشارني في الأمر، فوافقنا حالاً  
وطواعيةً ودون أي تردد، مؤثراً اخوتي على نفسي.. وفي  
الحق أن نفسي قد تافت إلى رؤية الدنيا وما فيها، لأنني قد  
مللت العمل في الزراعة وملتت هذه القرية وما فيها من بيوت  
مصنوعة من الطين والتبن، وأحبت استطلاع ما وراء تلك  
الآفاق البعيدة التي لفتت

24

نظري وجلبت اهتمامي. ومع كل هذا فقد انتظرتُ  
موعَدَ الخروج وأنا أحمل في طياتِ نفسي المعاني الحقيقية  
من القلق والحزن، لِمَا سألَاقِيه من فراق الأحبة والأقارب..  
ولما جاءتِ العساكرُ لأخذنا وتجميعنا، إذ خرج سكان  
القرية جميعاً متدفقين من كل حدبٍ وصوبٍ، وهم يصطحبون  
أطفالهم وشيوخهم ونسائهم وفتياتهم، أصحاءهم ومرضاهم  
ولم يتخلف منهم أحد توديعاً لنا ولإلقاء النظرة الأخيرة علينا..  
نظرة الرحيل.. وكانت دموع الحزن المنهمرة من أعينهم قد  
غسلت وجوههم وبلت أطراف ملابسهم..  
لم أكن في حياتي أتصور أن تُقاد إلى الموت  
ونحن صاغرون إلى هذا الحد.. وفي وضح النهار.. وفي وداعنا  
موكب مهيب.. إن الموت لا يعني انقطاع الحياة على الأرض..  
وهذا فهم خاطيء.. بل تبقى الروح متعلقة بما خلف الإنسان  
من أملاك وأولاد وكتابات فكرية تراقب وتحاول أن تحميها من  
كل خطر داهم إلا أنها لا تستطيع أن تنفذ شيئاً..  
في الحقيقة لم أفهم ما قاله جدي إلا بعد سنين طويلة  
ثم نظرت إليه وإلى ضيفه فوجدت عيونهما تصب دموعاً، ولم  
أكن في الحقيقة أتحمّل مثل تلك المواقف التي انفعّل فيها  
بسرعة فأردت أن

25

أتجاوز هذه المرحلة بسؤالٍ فضوليّ:  
-أخبرني يا جدي ، إلى أين ذهبتُم بعد ذلك؟  
-لقد قادونا إلى معسكرٍ فسبح بيعد عن بلدنا مسافة يومين  
سيراً على الأقدام، حيث بدأوا بإرشادنا وتدريبنا تدريجاً أولياً،  
وبعد مرور شهر تم نقلنا إلى بلادٍ اسمها الشام ومركزها  
دمشق، حيث فرض علينا القيام بأعمال شاقة لاختبار مدى

قدرتنا على تحمل المشاق والشدائد وأهوال الحرب، فلما رأوني أكثر الجنود صلابَةً وقع الاختيار عليّ لأكون ضابط صفٍ من المرتبة الأولى.. ثم بعد ذلك أثبت جدارتي فتمت ترقيتي في مناصب رفيعةٍ حتى أصبحت قائداً فرقةٍ مهمتها القيام بأعمال الاستيعاب والتجنيد والتدريب .. فقامت بعلمي وأخلصت فيه على أكمل وجه إلى أن كثر الحاسدون الأشرار ، إذ تأمروا لإيقاعي في مأزقٍ حرجٍ وهم يظنون أنني لا أستطيع الخروج منه ..

-وما هو هذا المأزق الحرج يا جدي ؟  
-في أحد الأيام ، عندما أمرنا بالتحرك من فلسطين نحو الشام لنقل المجندين الجدد، توجهنا إلى منطقة تسمى "الناصره"، وخيم الليل علينا وكان عدداً مائتان وثلاثة وثمانون شخصاً، ونزلنا بوادٍ عميقٍ للاستراحة من تعب يوم شاق وقام الطهارة بإعداد طعام العشاء ومن ثم خلد الخلق للنوم . ولما طلع علينا الصبح وأمرنا

26

القائد بإحصاء الجنود، اكتشفوا فرار ثلاثة منهم رغم الحراسة الليلية، حيث حيكّت مؤامرة ضدي، فتم إحالتي فوراً للمحاكمة العسكرية.. ولما مثلت أمام القاضي، أخذت المسؤولية علي عاتقي، واعترفت بخطئي، فصدر حكم القاضي بقبول أحد الخيارين: إما بتخفيض رتبتي العسكرية أو بقطع إبهام قدمي اليمنى، فوقع في حيرة من أمري.. وقلت في نفسي، إن هذا بلاءً وابتلاءً من الله سبحانه وتعالى، وأن الله إذا أحب عبداً ابتلاه ولن يضيعني الله أبداً.. فقد أرادوا اختبار مدى إخلاصي للدولة وللسلطان.. فلو اخترت الأول لكنت الآن في عداد الموتى ولأصدروا علي حكماً بالإعدام، إذ أن التخفيض من الرتبة في ذلك الوقت

يعتبر خيانة، فاخترت الثاني وفعلا تم قطع إبهام رجلي اليمنى .

- إن هذه العسملية ظالمة، يا جدي ، ولكن لماذا كانت أحكامهم قاسيةً إلى هذا الحد؟

- لأنهم أرادوا المحافظة على النظام.. آه.. كانت أيامًا حلوة رغم مرارتها.. غنيةً رغم فقرها.. سعيدةً رغم حزنها.. ألا ليت السلطان يعود يومًا فأخبره بما فعل الناس ... لم يتم جدي حديثه الذي استنتجت منه أنه كان راضيًا عن الحال

## 27

التي فرضتها عليهم العسملية.. فقد تركني وخرج مع ضيفه وأنا متلهف لسماع حديثه.. وقد شعرت حينها أنني كنت أبحر في بحر عميق لا شاطئ له..

غبت عنه أسبوعين كاملين لانشغالي في الدراسة واللعب مع أصدقائي.. ولم أصدق ما سمعته حين قدم أحدهم وأخبرني عن إصابته بنوبة قلبية ووفاته في الحال.. فتذكرت لقائي الأخير به وعلمت أن جدي قد تركنا وفي قلبه حنين إلى الماضي وحسرة على ما فات..

هذا هو جدي الذي عهدته، فقد كان شهيمًا جبارًا جلدًا حكيمًا بعيد النظر، لا يشتكي لأحدٍ غير ربه، ولا يُظلم عنده أحد، أحب الناس وأحبوه.. رحم الله جدي رحمةً واسعةً..

(5)

### الكاميرات الخفية

الفصل ربيع<sup>١٥</sup> ، والجو بديع ، وزرقة السماء الصافية تبعث البهجة في النفوس، وكانت الشمس قد خرجت بخيوطها الذهبية اللامعة من مخبئها في صباح يوم الثلاثاء، بعد مرور ثلاثة أيام من المطر الغزير المتواصل الذي منع الناس من التجول في الشوارع والأزقة فالزمهم بيوتهم وأجبرهم على الركوع للمدافيء، فأخرجت معها المخلوقات البشرية والحيوانية كافة كي تنعشها بأشعتها الدافئة، وتستمتع بمنظرها الخلاب الذي افتقدته بعد أن ملت أيام الشتاء الباردة. وخرج البشر ليأخذوا هم أيضاً حظهم الوافر منها.. وخرج معهم عادل أمين ومصطفى عبد العظيم متجهين بسيارتهم نحو مدينة تل-أبيب بغية شراء ملابس وأحذية جديدة من صنع إيطالي، رغم أسعارها الباهظة الثمن.. وكانا قد اعتادا من قبل على شراء ملابسهما من هناك.. ومن أحد الحوانيت الواقعة في الجانب الغربي من شارع "ديزنغوف" التل أبيبي الشهير.. وكانا منذ ثلاث سنوات قد انقطعا عن شراء الملابس والأحذية من حوانيت بلدتهم العربية التي أصبحت في نظرهم لا تساوي شيئاً..

ولما وصلا المدينة ، كان عادل<sup>١٥</sup> يجلس خلف مقود سيارته المصنوعة في ألمانيا من نوع " بي أم في " ويقودها بهدوء وتؤدق تامين، بثقة واطمئنان مطلقين.. أما مصطفى فقد جلس

إلى يمينه، وهو يمسك بين إصبعيه بسيجارة مشتعلةً من نوع مارلبورو الأمريكي يضعها في فمه بين الفينة والأخرى ويتصاعد منها الدخان إلى أعلى ثم يصطدم بسقف السيارة فيأخذ مجراه نحو النافذة المفتوحة ثم إلى الهواء الطلق.. وكان قد لفت انتباهه منظر ثلاث فتيات كواعب نواهد يترنحن علي الرصيف الأيمن من الشارع، في ضحكٍ يتبعه قهقهات عاليةٍ ومنتالية.. فصوب نحوهن نظرةً كادت تخطفهن، ولكن تقدم السيارة نحو الأمام قد فوت عليه فرصة التمتع بالمنظر الجميل الخلاب وحال دون إرادته..

وحينما وصلت بهما السيارة إلى الموقف الخاص الذي اعتادا إيقاف سيارتهما فيه عند زيارتهما لتلك المدينة، وجداه مزدحمًا بالسيارات الجاثمة على أرضه.. ولكن لحسن حظهما شاهدا شخصًا يتجه نحو سيارته ينوي مغادرة المكان، فانتظراه حتى أفسح لهما المكان، وأوقفها فيه دون أن يعانبا من مشقة الانتظار أو إضاعة الوقت.

### 30

وفيما هما يغادران سيارتهما وأوشكا على مغادرة أرض الموقف إذا بشاب غريبٍ أبيض ونحيفٍ، يبدو أنه في الخامسة والعشرين من عمره، يتحدث العربية بلكنة أجنبية يقترب منهما ويصافحهما قائلاً:  
- السلام عليكم .

ردًا عليه التحية ببساطة وبراءةٍ، وهما في حيرة من أمره، وظنًا أنه إنسان متمارض يريد ميلغًا من المال بحجة إجراء عملية خطيرة أو أنه متطفل سيدعي أنه انقطعت به السبل وبقي في تل أبيب دون مالٍ وأنه ينوي العودة إلى

بلدته ويريد المساعدة، تماماً مثلما يفعل أمثاله من الشباب اللبقيين .. ولكن ظنهما قد خاب في هذه المرة بالذات ..  
- لدي ثلاث "كاميرات فيديو" جديدة ومغلقة بعلب الكرتون الأصلية وبسعر رخيص جداً.. حصلت عليها قبل قليل من أحد اللصوص. ومن المؤكد أنه اقتنصها من أحد الحوانيت التي تباع مثل تلك الكاميرات، السعر الرسمي للوحدة في أي حانوت لا يقل عن ثلاثة آلاف شيكل ..  
- باختصار شديد وبلا لف أو دوران .. أخبرنا بكم تباع الكاميرا الواحدة ..  
رد عليهما ببرود ومن غير تحمس:

31

- أنا أريد بيعها مجتمعةً.. وأطلب مبلغاً لا يقل عن ألف وخمسمائة شيكل..  
- والله إنه سعر مغر جداً، أي أن الواحدة تساوي خمسمائة شيكل.. ولكن هل لنا أن نراها بأم أعيننا فنتفحصها قبل شرائها..  
- نعم نعم، وهذا من حقكما . ولكن بعد أن تقضيا حاجاتكما وتعودان إلي هنا ثم تعزمان على مغادرة المكان، كي لا يفتضح أمرنا فنصبح جميعنا في خبر كان ثم نعض بأسناننا على أصابع الندم. وها هو رقم هاتفي النقال..... بإمكانكما الاتصال بي والتحدث معي متى تشاءان وسأحضر في الحال .  
أخرج مصطفى من جيبه ورقة صغيرة وتناول قلمه وسجّل عليها الرقم المذكور ثم شكّها في جيب قميصه الأيسر وقال:-  
- أنت صادق .اتفقنا .. سنتصل بك بعد ساعة ونصف من الآن..



ثم همسي في أذن صديقه:  
-صحيح أنها مسروقة ولكن الزمن كفيل بأن يمسح الذنوب  
التي يرتكبها الإنسان ويزيل الخطايا التي تولد معه.. والزمن لا  
يظلم أحداً

32

مثلما يقولون.. بل هو الماء الذي ينقي النفوس، وبحيي  
الضمائر بعد موتها، ويرد كل بعيد إلى بيته، وينبت الشجر  
الطيب في الأرض الطيبة.. فإذا لم يحدث هذا ولا ذاك لا يبقى  
أمام المرء إلا اللجوء إلى وطن بديل والبحث عن مكان لا تكثر  
فيه المعاصي.. فلا تلعن الزمن بل سايره يسايرك.. واصبر  
عليه يرفعك شيئاً فشيئاً..

غادر الأشخاص المكان كل في طريقه، وقد شكَّ عادل  
في صدق نوايا هذا الشخص ظاناً منه أنه مختل ومخادع ولا  
حاجة لهما بالاتصال به أو التعامل معه. أما مصطفى فقد رأى  
أنه ينوي معاينتها قبل شرائها حتى يتأكد من صلاحيتها  
وسيكون حريصاً إلى أبعد الحدود..

عاد الشابان بعد ساعة وربع من موعد الفراق إلى  
الموقف، وحاول مصطفى الاتصال بالشاب اليهودي من هاتفه  
النقال ثلاث مراتٍ إلا أنه لم يفلح إلا في المحاولة الرابعة.. وما  
هي إلا ثوانٍ معدوداتٍ حتى برز الغريب من بين صفوف  
السيارات الجاثمة على أرض الموقف مثلما يبرز النسر فجأةً  
لاقتناص فريسته..

بعد مفاوضات تخللها مدٌّ وجزرٌ، اشترط الشاب أن يرافقه أحدهما لمعاينة البضاعة ، قبل شرائها، وأن ينتظر الآخر في سيارته قرب الشجرة الكبيرة خارج أرض الموقف استعداداً لمغادرة

### 33

المكان سريعاً، ومن ثم تتم عملية الاستلام والتسليم ..وما أن أوقف عادلٌ سيارته في المكان المحدد حتى ظهر مصطفى لاهتاً متحمساً ومنفعلاً ..

وكادت أن يطير في الهواء من شدة الفرح وهو يقول :  
- حقاً إنها كاميرات جديدة مغلّفة في علبيها الأصلية وموضوعة في كيس من النايلون باللون الأصفر، إنها صفقة مغرية ومربحة جداً. أعطني كل ما لديك من المال وستحاسب فيما بعد .

- ولكن هل تأكدت من صلاحيتها ؟  
- نعم، وقد جربتها واحدةً واحدةً حتى تأكدتُ من ذلك. وسيسلمني إياها خلف تلك الشاحنة.  
- يوجد معي الآن ألف شيكل ، وبإمكانك أن توقّي الباقي من مالك، ولكن أريدك أن تتأكد من عدم تبديلها بكاميراتٍ غير

صالحة !

أخذ مصطفى المال وتوجّه إلى نقطة اللقاء، وحينما مضى على غيابه خمس دقائق، رجع راكضاً لاهتاً يحمل بيده اليمنى الكيس الأصفر الذي تحدّث عنه قبل قليل وأخذ مقعده في السيارة وقد بدت على مٌحياهُ أمارات الغبطة والسرور ثم هتف قائلاً:

- لقد دفعتُ له ثُلثَ المبلغِ أي خمس مائةٍ شيكل، لأنه لم يحضر

34

إلا كاميرا واحدة. وقد ألحَّ عليَّ أن أدفع له المبلغ المطلوب كاملا وأقسمَ بأن يحضر لي ما تبقى من الكاميرات في الحال، وبهذا فقد عرفت أنه يحاول خداعنا والاحتيال علينا إلا أنني قد فوتُّ عليه الفرصة .. "وَمَحْسُوبَكَ" كما عهدته وتعرفه من قبل، لا يمكن أن يخدعنه أحد من البشر.. لذلك يجب علينا أن ننتظره حتى يحضر لنا ما تبقى من البضاعة..  
- ولكن هل فحصت إمكانية تبادل البضاعة التي أحضرتها معك

ببضاعةٍ أخرى ..

- كلا لأنني تيقنت من تسليم الكيس الأصفر نفسه ومن علبة الكرتون التي بداخله والتي رأيتها بعيني قبل قليل..

انتظر الشابان عشر دقائق دون أن يرجع الغريب إليهما، وخرج مصطفى للبحث عنه ولمعرفة سبب تأخره، أما عادل فقد أخذ العلبة وفتحها، ولكنه لم يجد فيها ما كان يتوقعه بل وجد فيها حجراً من الطوب الأبيض كأنه ذرات الرمل الأحمر وقد تساقط بعض منها في قاع العلبة .. فأنشد يقول:  
ألا ليت حنيناً يعود يوماً فأخبره بما فعل مصطفى

\*\*\*\*\*

35

(6)

فلسفة أرنب

كنت جالساً في مقهى الجامعة مع زميل لي، وهو من أصل أوروبي.. وتحدثت معه في مواضيع كثيرة.. دخلت معه في متاهة من النقاش السياسي، وعن العلاقات التي تربط الشعوب بعضها ببعض، والمعايير الدولية، وسياسة الكيل بمكيالين، وسياسة الأمر الواقع.. فقال لي بالحرف الواحد : إن ما يجري اليوم في العالم يشبه إلى حد كبير حكاية الأرنب مع الأسد..

قلت له: وما هي تلك الحكاية ؟

قال مستغرباً: أحقاً لا تعرف هذه الحكاية ؟

قلت : وهل أنا عارف بكل شيء..

قال: خرج الثعلب يوماً للتَنَزُّه في الغابة، فصادف أرنباً يجلس

على باب مغارةٍ منهمكاً في الكتابة بجدٍ ونشاطٍ، فسأله :

- " ماذا تكتب يا صديقي الأرنب؟"

- " أكتب خطاباً فيه نظرية فلسفية -تجديدية وتجددية -

وأريد أن ألقياها في المؤتمر العام الذي سيعقد في

الساحة الحمراء من أجل

- ترويج ملك الغابة الجديد."

36

سأله الثعلب ساخراً منه: " وما هي تلك النظرية الفلسفية

-التجديدية والتجددية- التي اكتشفتها يا حضرة الفيلسوف

المتفلسف؟"

أجابه الأرنب باعتزاز وبصوت جهور : " أرنب تفترس الثعالب !"

انفجر الثعلب ضاحكاً حتى برزت أنيابه الحادة وانفجرت أسارير

وجهه وقال للأرنب:

- " هذه النظرية فارغة مثل صاحبها ومن أساسها ..يا

صاحب النظرية التجديدية والتجددية.. إذ كيف يمكن

للأرنب أن تفترس الثعالب أيها الأرنب الصغير؟"

- " تعال معي إلى المغارة وأنا على استعداد تام لأثبت لك صدق

هذه النظرية، ثم لماذا تستهزيء مني؟ ألأنني صغير أم لأنني نباتي ألا تعلم أن الضحك الكثير يقلل من قيمة صاحبه، ويضع الغشاوة على العيون، فيعمى القلب ويصبح مثل الأرض الخراب التي تنبت فيها الأعشاب البرية الضارة، ثم تختبيء بين سيقانها الأفاعي والعقارب، وهي الخطايا .. ولو عرفت حقيقة الأمر لبكيت كثيراً ولفرحت قليلاً.. وقد يكون الضحك سلاحاً لتثبيط عزائم الآخرين ولكنه لا يجدي نفعاً أمام أصحاب النفوس القوية التي لا تهزها الرياح ولا

### 37

الأعاصير.. هيا بنا إلى المغارة".  
ولما دخل الاثنان المغارة ، بدأت تُسمع أصوات قوية تدلُّ إلى حدٍّ ما على صراع شديد ومزير وهي تشبه أصوات الرعد وأصوات تكسير العظام.. وبعد هنيهةٍ خرج الأرنب من المغارة وهو ينظف قطرات الدم التي تناثرت على جسده بقطعة من القماش الأبيض، وجلس على الأرض وأمسك قلمه واستأنف كتابته..

وبعد فترةٍ قصيرةٍ ظهر الذئب ورأى الأرنب مستغرباً في كتابته فتوجه إليه سائلاً إياه :

- " ماذا تكتب يا صديقي الأرنب؟ "

- "أكتب رسالةً فيها نظرية فلسفية تجديدية وتجددية وأريد أن ألقياها أمام المؤتمر العام الذي سيعقد من أجل توحيد الملك الجديد في الساحة الحمراء"..  
..

- " وما هو موضوع هذه النظرية الفلسفية التجديدية والتجددية أيها الأرنب الصغير؟"  
- " الأرانب تفترس ذئبًا".  
استلقى الذئب علي قفاه واهتزّ جسده من رأسه حتى أخمص قدميه من شدة الضحك وقال:  
- "هذه رسالة سخيفة يا مفترس الذئب!! كيف يمكن  
للأرانب

38

أن تفترس ذئبًا مع أنها صغيرة الحجم وليست من آكلات اللحوم؟ ألا تعلم أنكم أنتم، معشر الأرانب، لو اجتمعتم جميعًا على قلب رجل واحدٍ وقررتم قتل فأرٍ، لما نجحتم في ذلك؟ "  
- " إن كلامك هذا يغضبني أيها الذئب المتكبر.. تعال معي إلى المغارة حتى أثبت لك صدق هذه النظرية ".  
وما أن دخل الاثنان المغارة حتى سمعت أصوات عراقٍ وتكسير عظام . وبعد هنيهةٍ خرج الأرنب من المغارة مبتسمًا وهو يمسح عن أنفه بقايا الدم الذي أصابه ، وجلس مستأنفًا كتابته .

وفي المساء مرّ النمر والدب من ذات الطريق التي سلكها الثعلب والذئب، وحدث لهما ما حدث، وخرج الأرنب مرةً أخرى مبتهجًا وهو يمسح عن أنفه بقايا الدم .  
وكان النسرد قد رأى ما جرى للحيوانات في تلك الساعة من خلال تحليقه في الجو فآحبّ أن يستطلع الخبر ويعرف ما جرى.. هبط قريبًا من الأرنب وسأله:  
- ما حكايتك أيها الأرنب؟ لماذا تُدخل الحيوانات إلى المغارة ثم تخرج بدونها؟  
- تعال معي إلى المغارة، وهناك تعرف سرّ حكايتي..

39

دخل الاثنان المغارة فرأى النسر أسدًا كبيرًا رابضًا في زاويةٍ من زوايا المغارة في رضىٍ وإطمئنان وقد أنهكه التعب والإعياء وتورم خداه وتخبضت لبدتاه. فأشار الأرنب إليه قائلاً:  
- " هذا هو صاحب النظرية الفلسفية التجديدية والتجددية .. ثم أردف يقول: " ليس من المهم أن يعرف الناس النظرية، ولكن الأهم أن تعرفوا من هو صاحب هذه النظرية".

40

العريس والجني- مجموعة  
قصصية

(7)

المنبر الحذر

كَانَ الخَطِيبُ واقفًا علي المنبر يلقي خطبة الجمعة أمام المصلين الموحدين. وموضوعها: " انحراف المجتمع متعلق بانحراف الأفراد وانحراف الأفراد منوطٌ بالإرادة وبالنفس البشرية ... " وقد حذر الناس من خطورة ما وصفه بالظاهرة الجديدة الدخيلة التي تتأثر من تعرض الناس لوسائل الاتصال والإعلام المحلية والعالمية وخصوصًا بعد انتشار القنوات الفضائية المرئية العربية منها والأجنبية، وشبكة المعلومات العالمية

وبعد أن أصبح العالمُ أشبهَ ما يكونُ بقريةٍ صغيرةٍ إلى حدٍ ما، ويستطيعُ كلُّ شخصٍ أن يعرفَ ما يحدثُ في كلِّ بقعةٍ من بقاع الأرض في أقلِّ من دقيقةٍ زمنيةٍ ، كما يعرف ابن القرية ما يقع من أحداثٍ في جميع أنحاء قريته لأن الألسن البشرية تنقل الأخبار بسرعة .. كما حذر من مغبة انخداع المسلم بالحضارة الغربية الزائفة والتي تقوم على أساس مادي زائل.. وأضاف أن التقليد الأعمى للحضارة الأوروبية قد جعل المسلمين في خطر بعد أن أصبحت بلادهم سوقاً استهلاكيةً للمنتجات التي أنتجتها الأدمغة الأجنبية .. وأنَّ العقل العربي أصبح في إجازةٍ حقيقيةٍ وقد استراح عن التفكير ، لأن غيره يفكر ويعمل وينتج.. حتى صار مغلولاً بالشهوات

#### 41

والمليذات.. كما أشار الخطيبُ بإصبع الاتهام إلى أيدٍ خفيةٍ وموجهةٍ تعمل من وراء الكواليس وتهدف إلى إسقاطِ الفتيات والشباب في مستنقعات الإجرام وبحر فسادٍ في الأخلاق ضارباً المثل تلو الآخر، متعمداً إبراز الجوانب السلبية لبرنامج "ستار أكاديمي" التلفزيوني الذي سلب العقول والقلوب والنفوس حتى أصبح حديث الصغير والكبير ، الفتى والفتاة ، والرجل والمرأة ..

كان الخطيبُ يقرأ خطبته عن ورقةٍ أعدها مسبقاً وهو يحذر ويهدد ويعد ويتوعد رافعاً سبابته اليمنى ويهزها هزاً عنيفاً . يرفع صوته عالياً تارةً ويخفضه تارةً أخرى .. يلبس بدلةً أنيقةً سوداءً .. تتدلى من رقبته ربطة زرقاءً .. وكانت حركاته أشبه ما تكون بالحركات الهستيرية .. ذات الطابع الخفيف..فتناثرت كلماته تناثر القطرات من السماء على الأرض الظماى..



وازدادَ الرجلُ حماسًا والتَّهابًا بعدَ أنْ رأى الناسَ قدْ  
وجموا وجومًا غريبًا، ثمَّ رفعوا كَفَّ الضَّرَاعَةِ يُؤمِنُونَ خلفه وهو  
يدعو اللهَ بالنصر والصلاح لأمةِ الإسلامِ.. واستمرَّ في إتمام ما  
تبقي من الخطبةِ حتَّى أثارَ الحماسَ الشَّدِيدَ في نفوسِ  
السامعينِ ، وأثارَ فيهم انطباعًا عَرَضِيًّا يبعثُ الحزنَ والشفقةَ  
على الحالةِ التي وصلَ إليها المسلمون اليومَ.. فيما سادَ جو  
من الصمتِ على مدى الخطبةِ من بدايتها إلى

42

نهايتها، خشيةً أنْ تبطلَ الصلاةُ ..  
خرجَ الخطيبُ من المسجدِ واثقًا تمامَ الثقةِ أنه استطاعَ  
إيصالَ الرسالةِ المستعجلةَ وتيقنَ أنه حققَ الغايةَ المرجوةَ  
والتي خططَ لها أسبوعًا كاملًا، واتخذَ له مجلسًا في المقهى  
المحاذي طالبًا كأسًا من القهوةِ العربيةِ "السَّادَةَ"، المرةَ  
المذاقِ ، ممزوجةً بالهال.. والتفَّ حوله عددٌ لا بأسَ بهِ من  
الشبابِ المعجبينِ ، مبدِّينَ له حماسهم وثناءهم على خطبته  
التي حثَّ الناسَ فيها على تربيةِ أولادهم تربيةً إسلاميةً  
سليمةً ،تمامًا مثلما ربي السلف الصالح أبناءهم على طاعة  
اللهِ ورسوله ، بغيةِ إنشاءِ جيلٍ صالحٍ ومجتمعٍ نظيفٍ.. ثمَّ أخذَ  
يمتص سيجارَةً من صنعِ إفرنجيٍ ، ويتصاعدُ منها دخانٌ أسودٌ  
منسجمٌ مع حرارةِ الجوِّ القاتمِ، لا يلبثُ أنْ يختفي بين كتلِ  
الهواءِ الراكدِ في أجواءِ المقهى..

وفيما هو كذلكُ.. وبالتحديدِ بعد ساعةٍ من انتهاءِ الخطبةِ  
ونزوله عن المنبرِ.. إذ رنَّ الهاتفُ الخليويُّ رنينًا موسيقيًا جذابًا :

- " ألو .. السلام عليكم "

- " وعليكم السلام .. "

- "كيف حالك يا شيخ..."
- " الحمد لله ، مَنْ معي؟"
- " يتحدثُ معك ....."

43

وقع الخبر على الرجل كالصاعقة .. سقط الهاتفُ من يده ثم سقط مغشياً عليه .. إذ لم يكن أحدٌ يعلمُ أن الفتى اعتمدَ في ذلكَ على هذه اليدِ الكريمةِ التي أُغدقتَ عليه قدر استطاعتها.. ولم يكن أحدٌ يتوقعُ أن يلقي ربه وهو علي هذه الحالِ .. وخصوصاً أنه ابن فلانٍ.. ولم يكن أحدٌ يصدقُ أن يقودَ سيارته في مثل هذه الساعةِ في شوارع "برلين" ونسبة الكحولِ في دمه عاليةٌ إلى هذا القدر.. ولم يكن أحدٌ يصدقُ أن ابن الشيخ "....." لم يكن يتعلمُ الطب كما كان يدعي بل كان صديقاً للأميرة اللندنية الساحرة ..

كان الناس جميعاً يعلمون ذلك .. ولكن لم يكن أحدٌ منهم يجرؤُ على قولِ الحقيقةِ... فصح فيهم المثل القائل :- "لا أرى.. ولا أسمع.. ولا أتكلم.."

44

(8)

طفلة في تل أبيب

السادس عشر من نوفمبر.. تاريخ طبع في الذاكرة..  
ذاكرة الأيام المليئة بالحب والسعادة والفرح والمرح.. الحب  
الذي يخلو من الكراهية "المتجذرة" بجذور حديدية متشعبة..  
ذاكرة الأيام التي بصقها الزمن فتحولت إلى حزن وتأييب  
للضمير وحرقة في القلب.. عسى أن تكفر الذنوب وتمسح  
الخطايا المتعفنة التي لم تخل يومها من شهوة ملتبهة في  
الجسد ومتأججة في الروح البشرية..

صورة جميلة حولها الزمان إلى صورة قاتمة، مشوشة  
خلقت بلبلة في النفس واضطراباً مهيناً في الذات، فنغصت  
العيش و"عشت" العيون فأصبحت لا ترى إلا سواداً بسواد..  
هي ذكريات يصحو بها الضمير ويحترق القلب كل عام في مثل  
هذا التاريخ.. إذ أن الذنب الذي جناه "كامل" على نفسه  
وعلى مجتمعه لا يعرفه إلا الله وامرأة، والله يعلم مصيرها.. هو  
سر عميق دفن في قاع بئر في جبال نائية.. والعلم بتطوره  
المذهل لا يمكن أن يكتشفه.. سر إذا مات صاحبه ذاب كما  
يزوب الملح في النهر العظيم.. أو تلاشى في فضاء مجهول  
مثلما يتلاشى دخان السيجار في أجواء الدنيا.. كلما خطر  
بباله

#### 45

وانفتح باب الذاكرة رأى تلك الفتاة الجميلة الشقراء.. "إيلانة"  
ابنة الدكتور "يوسيف" من يهود فرنسا المتحررين.. تقف أمام  
ناظرية وترجوه أن يسافر معها إلى أبعد بلد في الفانية..  
الولايات المتحدة!.. كندا!.. البرازيل!.. أستراليا!.. قال له والده  
يومها: "يا ابني من طين بلادك دهن خدادك.. فتاة على غير  
الدين!.. هذا أمر غير مشروع.. على غير القومية! لا لا أنا ما  
بقبل في هذا.. خذ أي بنت عربية بدك إياها وأنا مستعد

أطلبك إياها من الصبح! وبنات اليوم مثل النمل.. وبعدين بدري  
اكثير على الزواج أول شيء خلّص تعليمك في الجامعة"..  
في مقهى موشيه العراقي أخبر "إيلانه" عن رأي والديه  
الرافض، فاشمأزت من الموقف ولم تجب شيئاً. اقترحت عليه  
أن يقضيا سهرة تلك الليلة على شاطيء البحر ليستمتعا  
بسحره الليلي ثم يعودان إلى بيته الذي استأجره منذ  
أسبوعين فقط في شارع "إلياهو هنافي" في تل أبيب.. قوبل  
الاقتراح بالإيجاب.. كانت تنظر إليه في الحقيقة نظرة الحب  
الذي لم تشعر به من قبل.. صحيح أنها أحبّت "ران" وظلت  
صديقةً له طيلة أيام الثانوية.. إلا أن "كامل" شاب يختلف عن  
باقي الشباب.. جماله لم يكن جمالا طبيعياً بالنسبة لها..  
ففيه امتزجت مزايا كثيرة واختلطت ثم أنتجت الفارس الذي  
كانت تحلم به وتتمناه..

#### 46

متوسط القامة.. عيان عسلتان يشع منهما نور فيه من  
جمال الابتسامة.. محياه كفلق الصبح مغلف ببشرة برونزية  
تميل إلى البياض.. وفم اصطفت فيه أسنان لامعة كأنها لآليء  
استخرجت من بحر يكثر فيه المرجان.. أما هو فقد اعتبرها  
صيداً ثميناً يتلذذ بها متى يشاء وأنها أصبحت ملكه على  
الرغم من أنه لم يعقد عليها.. هكذا يعيش الأوروبيون.. وهذه  
هي طبيعة الحياة المتقدمة.. وكل شاب له صديقة يعيش  
معها مثل زوجته حتى إذا ما قررا الإنجاب تزوجا وفقاً للطريقة  
التي تناسبهما.. أما الشرق فلا يعرف شيئاً من هذا وحياتهم  
كلها كبت في كبتٍ، ولقد ولّى هذا الزمان إلى غير رجعة..  
وراح يتمتع من جسدها المحترق أيما استمتاع وغرس أصابعه

المتوحشة في عنقها فاحتبس نفسه ثم أحست أن أبواب الدنيا قد تفتحت أمامها معه..

لم يكن يعلم أبداً أن البذرة التي زرعها ستنبث في يوم من الأيام وخصوصاً عندما تزرع في أرض خصبة، وستنمو حتى تصبح شجرة.. لكن الشجرة سوف تتحول إلى حزن وتأنيب للضمير وحرقة في القلب.. ظلها سوف يلهب الجسد ويؤجج الروح.. ليست هناك طريقة تجربه على الزواج منها إلا بهذه الطريقة.. سوف يرتبط بشيء ما ولن يرتبط بفتاة أخرى.. وهي مستعدة لتبديل دينها واسمها وقوميتها لأن الحب الحقيقي الشافي يتطلب ذلك ولا يعرف الحدود

47

التي ترسمها الأديان والقوميات بين أبناء البشر.. ولا تقف أمامه الحواجز ولا الأسوار ولا الجدران الفاصلة.. فهو رباط قوي بين الأرواح.. المهم أن يكون ملكاً لها لا لغيرها.. كان بالنسبة له عبارة عن ضربة شديدة.. فهو لم يكتشف الأمر إلا بعد أن ظهرت عليها أعراض الحمل جليةً ولم تستطع إخفاءها عنه طويلاً.. وكانت تقول له:

"لماذا تعتبره صدمة.. ألسنا متزوجين؟"

"لا لسنا متزوجين.. من قال لك أننا متزوجان.. الزواج لا يتم بهذه الطريقة.. ولا بهذه السرعة.. ثم لم يمض على تعارفنا وقت طويل.. ماذا سيقول أهل بلدي لو عرفوا بالأمر؟"

"يا جاهل لا تحسب لأقوال الناس حساباً.. الغرب لا يتزوجون حسب الطريقة التي أنت تفهمها.. ويكفي للزوجين أن يتحابا ثم يتفاهما ثم يتفقا.. وإن شئت فبإمكاننا أن نعقد اتفاقاً عند أي محامٍ في كل وقت.."

- ولكنني ما زلت طالبًا في الجامعة؟
- صحيح أنت ما زلت طالبًا في الجامعة.. وهذا لا يعني أن طلاب الجامعة لا يتزوجون ولا ينجبون.. ولكن اطمئن من هذا الجانب.. راتبي يكفي لإعالتنا نحن الاثنين.."

48

لم تأبه لتقولاته.. ولم تكن تشعر بالصعقة التي صعق بها.. واشتد النقاش في البيت وازدادت حدته.. حاول إقناعها بالإجهاض.. إلا أنها رفضت ذلك.. أما الصعقة فلم تغير من سلوكه إلا بعد أن اقترب موعد ولادتها.. فقد هددها بالهرب وترك البيت إن لم يوضع المولود في بيت الأيتام.. المهم التخلص منه بأية طريقة.. لم تكن تتوقع أن يكون رده قاسيًا بهذه الطريقة.. حاولت أن تتلاعب بعواطفه إلا أنها فشلت.. والضرب على العواطف أهون من أية فضيحة.. وأبوه من عائلة شريفة لم يمسهها سوء من قبل.. كان أهون عليه أن يضحى بابنته من أن ينكشف أمره وينتشر الخبر بين أهله وأصدقائه..

أثار منظرها في نفسه وهي تلد أمامه في غرفة الولادة في مستشفى "إيخيلوف"، قرعًا شديدًا.. وأحس بدورانٍ في رأسه وغثيانٍ ورغبةٍ في التقيؤ.. فقد خرجت من جسدها مولودة صغيرة بحجم الأرنب.. زعقت وشهقت وتنفست مثلما يتنفس الآخرون.. وخرج من قسم الولادة يشعر بالذنب والاختناق واحتقار للنفس.. والخوف من المجهول شبح صار يلاحقه في كل مكان.. وقبح الصورة منعكس من المرأة التي يقف أمامها في الحمام وهو يحلق ذقنه.. فقد أصبحت الصورة مشوهةً في هذه الدنيا وأحس أن الدنيا تلاحقه.. وعليه الآن أن يهرب منها إلى مكان أكثر أمنًا..

49

وكان من عادته أن لا يطيل الغياب عن قريته فيقوم بزيارتها مرة كل أسبوعين وأحياناً مرة كل ثلاثة أسابيع.. وكانت أمه تستقبله بحفاوة بالغّة فيقبل رأسها ويحتضنه والده بحرارة ويسلم عليه إخوته ويرحب به جيرانه ومعارفه.. ووضع فيه والده كل ثقته.. وهو يرجو منه أن ينهي تعليمه بنجاح ليصبح مدرساً يرفع به رأسه أمام الناس.. لاحظت أمه عليه تغيره.. وقالت له:

-مالك يا ابني يا كامل متغير هذي المرة؟.. ليش أعصابك ساخنة ومتوترة هيك؟ في إشي؟ إحكي لي كل شيء وافتح لي قلبك! وأنا مستعدة لمساعدتك.

- لا.. ما في إشي يا ماما.. بس كثرة القراءة بتتعب.. والحياة في تل أبيب مش سهلة.. وبصراحة أنا زهقت التعليم.. لأنو شغلة التعليم بتطعمش خبز.. اليوم ميكانيكي واحد أحسن من ألف معلم.. ومقاول بسيط أفضل من مائة دكتور.. واليوم في عصرنا ما فيش قيمة للمتعلمين..

- إشو هالحكي يا كامل.. أنت تغيرت كثير كثير.. شو اللي غيرك..

قبل أن تتجاوز العشرة أيام أدخلت "مريم" في بيت للأيتام.. وبموافقة الوالدين.. ووضعت الشروط اللازمة وتم التوقيع على التنازل

50

التام وعدم المطالبة بها أو السؤال عنها.. والمطالبة بها قد توصل صاحبها إلى المحاكم وقد تكلف مبالغ طائلة.. وقبل أن تستلمها الحاضنة، شدها إلى أنفه وشفتيه وأخذ يشمها

ويقبّلُ جبينها.. لقد قبّلها سبع قبلاتٍ حارةٍ كانت تنطق بالرأفة والحزن والعذاب.. وأخذت أصابعه تتحسس خديها الرقيقين ورقبتها الصغيرة.. ثم ألقى عليها نظرة فاحصة طويلةً متأملَةً، فانزلقت من عينيه الذابلتين دمعتان ساختان لامستا وجه الطفلة فأيقظتاها من سباتها.. ثم أحس يبرد يلفه ويلفح وجهه، حينما رأى يدي الحاضنة تقتربان منها ثم تتلقفاها من بين ذراعيه.. وشعر عندها أنه يريد أن ينبج كالكلب المسعور إلا أنه شعر بالموقف المحرج وكان المكان مزدحمًا بالناس فلم يتمكن من ذلك.. فأخرج من جيبه منديلا ومسح به وجهه ودمعه..

لقد مضى على هذا ثمانية عشرة عامًا.. وليست هناك حواجز تمنعه من مشاهدة ابنته مباشرة على شاشات الذاكرة.. أما إنه قد انفصل عن "إيلانة" وترك الجامعة وعاد إلى قريته، فهذا لا يعني أنه يستطيع نسيان الماضي والتخلص منه.. وكان انزواؤه بنفسه الذي يشبه انزواء المريض في فراشه، وانتقاله من حسرٍ إلى حسرٍ، قد أثار الشك في نفس زوجته وأولاده.. ولما سئل، احتج بالإرهاق والملل من عمله الذي يعمل فيه.. ثم طغى عليه توثب الكآبة والتوتر والغفلة..

## 51

وإذا كانت "إيلانة" قد هاجرت وتزوجت في الولايات المتحدة ثم لم تعباً بماضيها الرخيص واستهترت بما أنجبت، فإنه لا يزال يقنع نفسه أن الفتاة التي ستنتسب هذا العام للجيش هي ابنته العربية.. هي من صلبه.. من لحمه ودمه.. ولسوف تقف في أحد الحواجز العسكرية وتوقف الناس وتطلب منهم إبراز بطاقات الهوية وتفتش أمتعتهم ثم تهينهم كما يهان غيرهم.. وتذلهم مثلما يذل الآخرون..



52

(9)

### قوانين اللعبة

الشرطة تطوق المنطقة، وتيمنع الناس من محاولة الاقتراب من المكان.. السيارات تغير اتجاهاتها وتبحث عن طرق التفافية بديلة من بين الأزقة الترابية المؤدية إلى الأحياء الجانبية.. الناس يتراكمون في جميع الاتجاهات وكأن الساعة أذفت .. حواجز الشرطة الحديدية نصبت وسط الشارع كسور برلين، أو كجدار قلقلية الذي يتحدث عنه الناس كثيراً.. المشاعر مشدودة وقد بلغت القلوب الحناجر.. سيارات الشرطة التي تطلق صفارات الإنذار، تتقدم صوب المكان في سرعة جنونية.. الرجال المقنعون يخرجون منها وهم مدججون بالأسلحة والهرافات وينتشرون في جميع المناطق.. عقارب الساعة تقترب من الثالثة عصرًا وفقًا للتوقيت الربيعي لمدينة القدس وما حولها.. الشمس التي بقي على رحيلها بضع سويعات، ترسل بأشعتها الذهبية إلى تلك البقعة بالذات، في حياء شديد.. الأشجار تنتصب على قارعة الطريق ترأب ما يحدث عن كُتُب.. ضاقت الدنيا بأصحابها وضاقت المكان بهم.. الجو مكهرب وأصبح مشحونًا بالتوتر .. ترى من يكون هؤلاء

الجناة .. أصبحت دائرة الخناق تصغر حوله وتضيق عليه من كل جانب.. لا مفر له سوى الاستسلام ..

53

لا.. لا.. عليه أن يلقن الخونة درساً لن ينسوه أبداً.. هؤلاء الأفاعي لا يعرفون إلا منطق القوة.. العنف.. كيف لا وقد نهبوا أمواله وأرضه وبيته وتركوه يباح كالكلب الذليل.. عبد الباقي بطل وسيظل بطلاً ، هذا رجل لا يعرف الذل ولا الهوان.. السجنون لا تخيفه وقد جربها من قبل بضعة سنوات.. هذا رجل ساقط مكانه السجن.. لقد جلب الخزي والعار لأهل بلدته.. ما هذا منع تجول!.. حتى في النهار!

" عبد الباقي ! أنت محاصر من كل ناحية.. ضع سلاحك جانباً وارفع يديك واستسلم ولن يمسك أحد بسوء! ثم أخرج!" - هتف الضابط بلغة عربية مثخنة لا تتم إلا على أن المنادي لا يعرف منها إلا القليل، عبر مكبر الصوت الذي كان يحمله في يده اليسرى.. ترى ماذا جنى عبد الباقي في هذه المرة.. وقد توقف عن سرقة السيارات، وإحضارها إلى المسالخ الشرقية ولم يعد إلى هذه المهنة منذ أن خرج من سجنه. لا بد أن يكون الأمر جاداً في هذه المرة..

وفيما الناس كذلك، وبعد أن مرت في مخيلاتهم خواطر التخميس والتسديس، إذ سمع صوت أزيز الرصاص في كل الاتجاهات، وبدا المكان كأنه ساحة حرب حقيقية.. وارتفع صوت المؤذن ينادي بأعلى صوته: " حي على الصلاة.. حي على الفلاح "

54

وارتفعت معه مشاعر الخوف إلى أعلى درجة من درجات سلم الرعب.. الطرفان يتبادلان إطلاق الرصاص.. حقاً هذه معركة غير متكافئة.. واختلط الحابل بالنابل وظن الناس بأن لا بد أن

يكون هناك ضحايا أو على الأقل بعض الجرحى من كلا الطرفين.. الشرطة تلقت الأوامر للانقضاء على الغريسة.. ولكن العجيب في الأمر أنها لم تجد أحداً في المنطقة.. أين اختفى الرجل الذي اختبأ وراء هذا الحائط قبل لحظات! كيف فر من المكان رغم الحصار المشدد! أي تكتيك استخدمه! وأية استراتيجية اتبعها! الأمر في غاية الخطورة .

وانسحبت عساكر الشرطة مخلفة وراءها كتلا بشرية في مختلف الأعمار والأجناس يروون ما شاهدوه بأعينهم، يحللون ويفسرون ويستنتجون. وارباه.. ما شاء الله! البلدة أصبحت أشبه ما تكون بتكساس المصغرة " تكيساس " أو " شيكاغو" المصورة في الأفلام البوليسية.. اغتياالات.. حرب شوارع.. صور مؤلمة.. حرب أعصاب.. اعتقالات.. ومعاناة..

فر عبد الباقي وهو يعلم أن شرطة مكافحة المخدرات ستلاحقه.. فليفعلوا ما يشاءون .. ثم لا يوجد عندهم دليل واحد يثبت صدق ادعاءاتهم أو وجود غرام واحد بحوزته من هذه البضاعة المحرمة دولياً.. الحقيقية أصبحت في أمان .. وفيها ما يساوي أربعون

## 55

ألف دولار أمريكي.. والسلاح تم التخلص منه بسهولة.. والشخص الذي حوصر؟ هو شخص آخر. أما عبد الباقي فكان في تلك الساعة يلعب الورق في بيت صديقه خالد.. وهناك ألف شاهد وتسع مائة دليل وخمس وستون حجة على ذلك.. ونسبة الأرباح المخصصة لبعض أفراد الشرطة.. والعلاقة الودية معهم والقائمة على أسس متينة كفيلا بأن تلعب دورها في المحكمة .. والقضية رأس مالها يوم وليلة.. نعم أربع وعشرون ساعة فقط وبضعة ثوان.. وسيخرج عبد الباقي منها كما تسحب الشعرة من العجين.. لأن البلاغ كان كاذباً.. والحياة

في نظره هي أن تدرس القوانين وتضع الخطط والأهداف ثم يتم التنفيذ، ثم تتحقق السعادة بنساء جميلات ومال كثير، ليس المهم ما هو مصدره.. وهو يكره السؤال كيف حصلت؟ ويحب السؤال كم معك؟ المهم أن يمتليء الجيب حتى يتمكن الإنسان أن يكون رجلاً.. وبدون المال لا يساوي الرجل شيئاً.. وهو ما زال يتذكر قول أبيه حين قال له مرة: "إياك أن تأتمن أحداً غير جيبك.. المال هو صاحب.. وبالمال تستطيع أن "تجخ" على الدنيا كلها وأن تملك قلوب الناس وعواطفهم.. أنظر إلى توفيق الذي ينادونه ب"أبو البطيخ" ما أكبر "جخته" وكل الدنيا تضرب له سلاماً.. والفقر بهدلة.. وحية الفقر مثل الجنة من غير ماء.. ولا بد للمرء من تطبيق

56

الفقر والذل ثلاثاً حتى لا "يتمرمرغ" في التراب و"الخمة".. يجب عليه أن يأكل الدنيا قبل أن تأكله..  
" هذا بلاغ من قسم شرطة مكافحة المخدرات- عليك أن تسلّم نفسك حالاً .. وإلا ستتخذ ضدك الإجراءات القانونية " .. ذهب الرجل إلى مركز الشرطة بقلب ملؤه دفاء الهدوء وسكينة الاطمئنان والثقة، يلبس بنطلون جينس أزرقاً وقميصاً أبيضاً وبوطاً رياضياً من السعر المتوسط، وفي فيه سيجارة، يشفط دخانها إلى صدره وينفثه عبر فتحتي أنفه..  
-اسمك؟.. عبد الباقي محمد.. رقم هويتك؟.. خمسون ألف.. العمر؟ أربع وعشرون عاماً.. مكان سكنك؟ .. بلدة عمورية /شارع الفقهاء 49 وهو امتداد لشارع المقاهي.. الجنس؟.. ذكر.. الحالة الشخصية؟.. أعزب.. قوميتك؟..عربي.. ديانتك؟.. الإسلام.. أنت متهم بالاتجار بالمخدرات وحيارة الأسلحة غير المرخصة وتشكيل خطر على حياة الجمهور..

وهكذا انتهى عنصر الحكاية في صباح اليوم التالي حال خروج المعلم عبد الباقي من مخفر الشرطة مرفوع الهامة، يمشي على أطراف أصابعه "يتهزهز"، ويصنع بإصبعيه السبابة والوسطى شارة النصر المؤزر "فيكتوري".. وقد استقبله أصحابه استقبال الأبطال

57

الفاتحين وهم يمرحون ويهنتون ويحمدون ربهم على سلامته.. وكان قد تعلم في سجنه فن اللعبة وقوانينها وأصبح يتقنها ويترجمها على أرض الواقع.. الامتحان كان سهلاً.. خرج ليكمل مشوار عمله الذي أنجزه وحقق فيه ربحاً سريعاً طائلاً دون أي عناء وقد أحسُّ بأصابع الفوز تتحسس أصابعه أول مرة في حياته.. وليتخدر "المتخدرين" ولتهدم البيوت وليذهب الخونة إلى الجحيم. فليسجل التاريخ والمؤرخون ما شاء لهم أن يسجلوا.. وقد صدق المثل القائل :  
الجيب أصدق إنباءً من الكتب  
واللعب

58

العريس والجني -  
مجموعة قصصية

(10)

زفاف الضحية

صوت المقرئ الشجي العذب والمنبعث من جهاز التسجيل مؤثراً حقاً.. يبعث في النفس الطمأنينة وراحة البال.. والكلمات الربانية تحرك مشاعر الخشية والرهبية.. الوجوه الأدمية الشاحبة و"المبرطمة" عابسة ومكفهرة.. أدعية الرحمة للميت تثير الحزن والشفقة على الأحياء الذين يتألمون بل ويعتصرون من شدة وقع الحادث عليهم.. واضطراب النفوس يخيم على أبناء القرية جميعاً.. فقد كانت المصيبة هائلة فعلاً.. وقد بلغت القلوب الحناجر.. في ذلك اليوم المقدس عند المسلمين من أيام شهر أيار الأخيرة.. يوم الجمعة الفضيل.. يوم زفاف حامد.. إذ بعد أن صلى الناس العصر اتجهوا إلى هذه الخيمة الكبيرة التي كانت مجهزة لتظلل الناس أثناء تناول وليمة العرس بعد الانتهاء من حفلة الطواف.. أقبل المعزون والمشيعون من كل حدب وصوب يحوقلون.. زرافاتٍ ووحداناً.. حتى من القرى المجاورة.. للمشاركة في تشييع جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير ولتقديم التعازي لذويه.. عظم الله أجركم.. شكر الله سعيكم.. يسلم رأسك.. البقية في حياتك.. حياتكم الباقية.. طول العمر لكم.. الرحمة للميت.. أسكنه الله فسيح جناته.. هذا قضاء وقدر ولا حول

59

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. وتليت آيات من الذكر الحكيم.. وألقيت كلمات معبرة.. ومواعظ حسنة.. أعقبها قراءة الفاتحة على روح النبي صلى الله عليه وسلم وروح أموات

المسلمين ثم روح فقيد هذا البيت.. حرارة الشمس الأيارية تحمل الناس على الاختباء بالظلال وبعض الصبية يطوفون بزجاجات الماء لسقي الناس.. عويل النساء المسموع ينبعث من داخل البيت المجاور، والحزن مخيم على الرجال.. الضحية التي ستزفت إلى المقبرة لا ذنب لها سوى أنها كانت قريبة من موقع الجريمة. والمجرم لم يعد مجهول الهوية وبقيناً أنه في قبضة الشرطة الإسرائيلية. وكانت الفاجعة هذه المرة عظيمة جداً وقد أذهلت الحاضرين والغائبين من الناس. فحامد إنسان مسالم. والعصفور يأكل كل عشائه.. يا رب! ما الذنب الذي ارتكبه حامد حتى نفتقده في رمشة عين.. يا ويلي! بالأمس أثقلت عليه الكلام الشديد، دون أن أعلم بالذي سيحدث له، واليوم سيصبح في القبر وحيداً.. حامد يا أخي سامحني. سوف انتقم من قاتلك.. أنا أعرف أنه لن يهدأ لك بال حتى ترى كمالات مذبوحاً كالخنزير. الكلاب والضفادع والحشرات أصبحت تكرهه وتكره رائحته ورائحة المكان الذي يتواجد فيه الآن. والأرض التي يسير عليها تكرهه أيضاً. لا لن أتقبل التعازي من أحد.. سأتابع العادات العربية في هذا الأمر وفي هذا

60

الموقف بالذات.. فليقولوا ما يقولونه.. متعلم! مثقف! هذا منعطف خطير! كل هذا لا يعنيني.. لا مفر من التضحية. لن أصفح عن هذا المجرم أبداً. ولا بد للقاتل من أن يقتل.. المحاكم اليوم غير عادلة.. والديمقراطية لباس ليس لنا ولا يلائمنا.. وليست قرآناً أنزل من السماء.. هذه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان. ما لنا وللتأمرك والتفرنس والتبرطن. فلتذهب الديمقراطية جميعها إلى الجحيم. هذه فلسفة لا تسمن ولا

تغني من جوع. هذا الجرح عميق في قلوبنا جميعًا.. ولن يندمل الجرح بسهولة. يقولون هذا قضاء وقدر! فليقولوا ما يشاءون.. ثم هل سيفتحون بيتًا للعزاء؟ وحامد قتلته رصاصات الغدر، وأنا على يقين أن كمالاته غيرته منه وحسدًا له على نجاحه في تجارته.. هذا الرجل لا يؤمن أن الرزق على الله.. يا ليتني مت قبل أن أراه يسبح في دمه.. حقًا إن فتح مثل هذا البيت يظل عارًا علينا جميعًا. يا إلهي لقد حول العرس في بيتنا إلى ماتم.. جلس شادي على كرسيه البلاستيكي الأبيض وقد بللت دموعه التي ذرفها ملابسه الجديدة، بعد أن انهارت أعصابه وخارت قواه وأحس أن عظامه "تتفصص" من شدة الحزن. أصدقاءه وأصدقاء أخيه أحاطوا به لمواساته وللتخفيف عليه من هول المصيبة.. عويل النساء الذي لا ينقطع يدفعه إلى النحيب بين الفينة والأخرى.. وصورة أخيه الملقى

## 61

على الثرى ببدلة العرس الملطخة بالدماء لا تفارق مخيلته.. وجلس الخلق معظمهم في صمت مهيب فيما أسند الآخرون ظهورهم على جدران المنازل المجاورة وهم يصغون للموعظة التي بدأ بالقائها أحد شيوخ القرية بصوته الجهوري ناصحًا إياهم بالعودة إلى دين الله وكتابه وسنة نبيه الكريم.. ثم أخذ يبرهن للسامعين أن ما حدث لا يمكن إلا أن يكون قضاءً وقدرًا لا يفر منه أحد معتمدًا على آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة. وأنهى حديثه بدعوة الناس إلى محاربة ظاهرة إطلاق النار في الأعراس لأنها تشكل خطرًا كبيرًا على حياة المواطنين، وما حدث اليوم هو أكبر دليل على ذلك.. وكان الناس في انتظار خروج الجنازة من المنزل الذي عاش فيه



العريس أربعة وعشرين سنة وقد تهامس بعض الصبية فيما بينهم شارحين تفاصيل الحادث المروع. وكان المنزل مكتظاً اكتظاظاً غير مألوف وهو عين المنزل الذي استحم فيه قبل أربع ساعات ونصف بالتمام. ومنه خرج موكب الزفاف ثم ركب فرسه المزينة وقد غنى له الزجال الشعبي زجله الفلسطيني الجميل، وكان محاطاً بالشباب وهم يرددون كلماته في سحجة قوية ودبكة منسجمة مع أزيز الرصاص. وعنده فاز كمال بمدح ذلك الزجال له فسحب مسدسه بغية إطلاق بعض الرصاصات في الهواء تعبيراً عن فرحه وشكره له. ولكن سرعة حماسه لم تعطه

62

الوقت الكافي لتصويبه نحو السماء، بل ضغط بإصبعه على ذلك الزناد المشؤوم أثناء استلاله السلاح الفتاك. فانطلقت أولى الرصاصات مخترقة قلب صاحب البدلة الأنيقة، فارتفعت روحه إلى السماء. وهدأ صوت الزجال وانقطعت زغاريد النساء.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى خرج الموكب المهيب يصحبه عويل النساء ونحيبهن تتقدمهن أم حامد والعروس والأخوات وقد احترقن بلهب الأسي وحرقة الفراق ثم تلا ذلك صيحات تهليل الرجال يتقدمهم أبو حامد والإخوة ووالد العروس.. لقد خرج العريس من حمامه في هذه المرة لابساً بدلة الموت محمولا في نعشه على الأكتاف دون أن يغني الزجال أو أن تطلق رصاصة واحدة. وزف العريس زفافاً لم تشهد القرية له مثيلاً من قبل ولكنه زفاه الأخير زفاف الوداع .

63

العريس والجني - مجموعة  
قصصية

(11)

مدينة النحاس

في أحد أيام الصيف الحارة، بينما كنت مستلقياً على سريري في غرفة نومي المكيفة بالهواء البارد وبعد الظهر مباشرةً، وبعد تناول طعام الغداء، تناولت كعادتي كتاباً فيه تمجيد لبطولات الفاتحين الأوائل من العرب وبدأت بقراءة الجزء الأول منه. أثرت في نفسي شخصية مميزة وفريدة من نوعها، شخصية خالد بن الوليد، والذي قيل عنه: "عجزت النساء أن تلد مثل خالد". ثم غشيتني سنة من النوم، فرأيت نفسي أهبط من طائرة نفاثة بمظلة كبيرة من علو شاهق لم أعهد له مثيلاً من قبل، وقد قدرت ارتفاعه بـ 1300 قدمًا، والرياح العاتية تتلاعب بي كالكرة المطاطية فتأخذني إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى.. والخوف الشديد يلبسني.. فقد كنت خائفاً من الهبوط في بحر عميق فأغرق فيه لأنني لا أجيد السباحة، أو في شارع مزدحم بالسيارات فأذهب دهساً تحت دواليبها..

ولكنني حين نظرت إلى أسفل مني إذا بي أرصد مدينةً مترامية الأطراف، بيوتها من نحاس ومتراسة، أسقفها تعكس أشعة الشمس الدافئة نحو السماء، شوارعها الضيقة ممتلئة بالبشر.. أسواقها مزدحمة بالمارة والمتسوقين،

64

سياراتها من الحمير والبغال، شاحناتها من عربات خشبية تجرها الخيول العربية الأصيلة.. وأشجارها من الرمان والتوت والليمون والعنب والصبر والنخيل.. الناس الذين شاهدوني هابطاً من السماء، اغتبطوا كثيراً وأخذوا يهتفون بأعلى أصواتهم ويلوحون لي بأيديهم وسيوفهم كأنهم يستقبلون ملكاً يهبط عليهم من السماء، أو كأنهم يتنفسون الصعداء بعد مجيء منقذهم الذي جاء ليخلصهم من حالهم التي هم فيها.. أو كأن نجماً خرَّ من السماء يحدث بعد سقوطه أمراً.. يا إلهي! ما هذه المدينة الغريبة؟ لا بد من أن تكون مدينة العجائب التي قرأت عنها في إحدى القصص الخيالية.. ولكن ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وكيف سأعود إلى وطني؟ الخلق الكثير الذين تجمعوا من حولي بعد ارتطامي بالأرض، كانوا من مختلف الأعمار والألوان والأجناس والأطوال، يتحدثون بينهم بالعربية الفصحى دون أن يلحنوا فيها لحناً.. يلبسون ملابس بالية ومغبرة طويلة الحواشي.. تعلق هماماتهم العمامات السوداء، وتتدلى على صدورهم لحاهم الطويلة.. يحملون سيوفهم بأيديهم وقد أشهروها في وجهي.. فأدركت أن حيني لا بد واقع على أيديهم لا محالة وأنا متمسك في مكاني لا أقوى على الحركة.. اقترب مني أحدهم فصاح في وجهي :

- من أنت ؟

65

- أنا خالد مصطفى عبد الكريم الخباز من مدينة رام الله من فلسطين .. ولكن أخبرني أين أنا الآن ومن أنتم؟

حَدَجَنِي بنظرةٍ فاحصةٍ عابسةٍ ثم صرخ في وجهي  
مهدداً ومتوعداً:

- لا تسألني شيئاً.. وعليك إجابتي على جميع الأسئلة  
فوراً.. من أي قوم أنت وما هو دينك؟

فأجبتُه بابتسامةٍ صفراءٍ وإجابة واضحةٍ وباعتزاز:

- أنا عربي من أبناء الشعب الفلسطيني، وديني هو  
الإسلام.

- أي أنك من بلاد الشام! ولكن كيف نزلت إلينا من  
السماء، وما هذه الملابس التي تلبسها؟

- نزلت من الطائرة النفاثة التي شاهدتموها وكانت  
تحلق في سماء بلدكم على ارتفاع شاهق، وهذه  
ملابس المظليين.

لم ينبس الرجل بكلمةٍ مستغرباً ودهشاً من إجابتي  
وراح ينظر إلى من حوله متعجباً وكأنه لم يفهم من إجابتي  
شيئاً، وكانت نظراته أشبه ما تكون بنظرات النمر قبل انقضاضه  
على فريسته، ثم أخذ يتساءل: طائرة نفاثة! مظليين! عجباً  
منك أيها الغريب هل أنت مهووس أم مجنون؟ ما هذا الذي  
تقوله؟ خذوه إلى السجن..

واقنادني رجلان يتقدمهم رجل على هيئة جندي  
شاكلي

## 66

السلاح إلى سجن قديم يقف على أبوابه حراس شداد  
غلاظ، واحتجزت فيه سبع ساعات على وجه التحديد،  
وأخرجت من جيبي الهاتف الجوال كي أبلغ أهلي عن مكاني،  
ولكن لم يكن فيه أية إشارة استقبال، وقد ظننت فيما ظننت  
أن الطائرة قد أنزلتني في جزيرة نائية، على ما يبدو لي أنها  
غريبة، لم تصل الحضارة إليها بعد، ولم يتم اكتشافها حتى

يومنا هذا.. وظننت أني سأكون أول المكتشفين وسيسجل التاريخ في صفحاته الخالدة هذا الاكتشاف العظيم. ولكنني كنت مخطئاً في ظني..

وفيما أنا جالس في زاوية السجن أفكر في زوجتي وولدي الصغير، إذا بالجنود يتقدمون ويأخذونني في عربة تجرها ثلاثة خيول وأنا مقيد اليدين والرجلين بأغلال من حديد، إلى وجهة مجهولة..

الخيول سارت بنا حوالي ساعتين على وجه التقريب، كانت تتجه بنا يميناً حيناً ويساراً حيناً آخر، جسوراً كبيرةً تعبرها، طرقاتٍ وأزقةً غريبةً تدخلها، قيودي الثقيلة التي كنت أشكو منها لم تمنعني من مشاهدة المناظر القديمة الحديثة، إلا أن الألم والخوف اللذين شعرت بهما في آن واحد قطعاً حبل بصري، وحين توقفت العربة وانتهينا إلى مكان تفوح منه رائحة الأزهار والورود، وتسمع فيه أصوات تغريد الطيور، يبدو أنه قصر ملكيهم، اقتادوني إلى داخل بناية فخمةٍ

67

تتقدمها عشرون درجة، وستة أعمدة نحاسية الصنع، ثم أدخلت في فناء كبير مفروش بالسجاد الفارسي الجميل الناعم. أحدهم همس في أذني قائلاً:

-سنقف الآن أمام أمير المؤمنين، خليفة المسلمين هارون الرشيد، ولا تتحدث في حضرته إلا إذا أذن لك بذلك. أحبته في همس متعجباً مما قاله :

- هارون الرشيد! أمير المؤمنين! خليفة المسلمين زمن الدولة العباسية! إذن نحن الآن في مدينة بغداد، مدينة السلام، مدينة المنصور! كيف يكون ذلك ونحن نعيش اليوم في القرن الحادي والعشرين؟

نحن نعلم بذلك، ولكن الأقدار حملتك إلينا لتخبرنا عن حال العرب والمسلمين في أيامكم. وسوف يطرح الخليفة عليك بعض الأسئلة، وعليك الإجابة عنها بصدق وصراحة وأمانة. وما أن أتم الرجل كلامه حتى علا صوت الحارس ينادي بأعلى صوته ويقول:

- خليفة المسلمين أمير المؤمنين هارون الرشيد! انهضوا لاستقباله!  
وقف الناس في صمت مهيب ودخل الخليفة الذي قرأنا عنه في كتب

68

التاريخ من باب جانبي، ولما شاهدته شعرت وكأن روحي قد ردت إلى جسدي بعد غياب طويل، وأطلت النظر إليه حتى شخصت عيناى، ثم عزفت الموسيقى ألحانها العذبة وأنشد النشيد الوطني، وصفق الحاضرون. فأذن الخليفة لهم بالجلوس وقال:

- فكوا القيود من أطراف الرجل !  
الأمر نفذ في الحال. كنت أقف وسط قاعة فسيحة يقوم سقفها النحاسي على أعمدة من الرخام الأبيض الإيطالي، أمام رجل جميل الطلعة، عظيم الهيئة، يجلس على عرشه الخشبي، يعلو قمة هامته تاج مرصع بالالماس والجواهر النفيسة، بيتسم ابتسامة عريضة، وينظر إلي بنظرات فيها من العطف والرافة، يقوم على جانبيه حارسان. أيعقل أن يكون هذا الخليفة هارون الرشيد؟ ولكن أين الخيزران؟ هي الآن مشغولة مع حريم القصر. وأظن أن هذا الذي يجلس عن يمينه من البرامكة الذين حلت بهم النكبة، وقد سئلنا عنهم في امتحان التاريخ في الثانوية العامة، وقد

حصلت على علامة عالية.. وهذا الذي يجلس عن شماله من كبار معاونيه، إنه يلبس ملابس خاصة.. حقًا ما أعظمك يا هارون الرشيد.. يا ليتك تعلم كم كتب عنك فطاحل العلم والباحثون والكتاب وعمالقة المؤرخين، وكم زيف عنك أقزام المستشرقين والمشككين.. سوف أخبرك الآن عن كل شيء ولن

69

أبقي شيئًا..

وسوف أشكو لك ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس.. وسوف أشرح لك بفخر واعتزاز عن كل الاختراعات والاكتشافات التي حدثت في عصرنا الحاضر، ولكن بعد أن تسمح لي بالحديث. واصطف على جانبي خلق كثير لم أر فيهم من الجنس اللطيف واحدة. وقد غشيتني مشاعر المغتربين الذين فازوا في مقابلة ومشاهدة الخليفة الذي لا يشق له غبار، وبادرني بالترحاب قائلاً:

- مرحبًا بك أيها الرجل في مدينة بغداد، المدينة التي لا تصدأ، عاصمة الخلافة العباسية.. مرحبًا بأحفادنا وأحفاد أحفاد أحفادنا.. انتم اللاحقون ونحن السابقون.. أهلا بورثتنا وورثة حضارتنا وعلومنا وديننا وأرضنا... ما اسمك أيها الرجل؟
- اسمي خالد مصطفى عبد الكريم الخباز من مدينة رام الله في الضفة الغربية في فلسطين.
- أين تقع هذه المدينة؟ أظنها بجانب بيت المقدس، نعم بجانب بيت المقدس.. ولكن أخبرني، كيف حال الحياة في أيامكم، وما هي أحوال الرعية؟

- الحياة يا سيدي صعبة للغاية، ومهما اشتغل العامل

70

البيسط، فإنه لا يتمكن من تأمين قوت أولاده إلا بصعوبة بالغة.. والبطالة تنتشر في أوساط الشباب، والغلاء لا يتوقف، والضرائب تثقل كاهل الناس ولا ترحم منهم أحدا.. والمعيشة صعبة للغاية، والحواجز والجدران والجمارك وجوازات السفر.. و.. و.. و.. و.. و..

زار الرجل وقد استفزته حمية الرجال وعاطفة الرحمة وصاح قائلاً:

- ولكن أين راعي الأمة وولاتها؟ لماذا لا تشكون أمركم

إليه؟

-عن أي راعٍ تسأل يا سيدي.. فقد كثر الرعيان، وامتلت جيوبهم بالأموال فبنوا القصور وغنتهم القيان، وامتلكوا السيارات الفاخرة، والحدائق الساحرة، واشتدت سواعدهم على الذين لا يقولون إلا كلمة الحق وامتلت السجون بالبشر.. وقضوا جل وقتهم في السمر.. بأسهم بينهم أصبح شديداً وهمهم الأول والأخير هو إرضاء أسيادهم من الفرنجة في الغرب، وتجزأ العرب فيما بينهم إلى تسع وعشرين جزءاً أكبرها مصر وأصغرها قطر والبحرين أغناها السعودية وأفقرها اليمن، ودبت الخلافات فيما بينهم و.. و.. و..

71

- ماذا تقول؟ يا ليتك لم تأت إلينا، ليتني لم أسمع منك شيئاً.. لقد تركنا الأمة في أحسن حال.. هذا ما كنت أخشاه، فقد



أصابكم الوهن فأصبحتم غثاءً كغثاء السيل..  
وأخذ الرجل يولول ويبكي ويعتصر من شدة الألم وقد  
أبكى معه جميع الحاضرين، الحزن خيم على المكان.. أصوات  
النحيب ارتفعت عالية حتى كادت تعانق عنان السماء،  
وجوههم وملابسهم ابتلت بالدموع المنهمرة، نياط أعناقهم  
أوشكت أن تنقطع.. وكم آلمني المنظر حين رأيت الخليفة  
العظيم الذي كتب عنه كبار المؤرخين، وشهد له القاضي  
والداني، يبكي بكاء الثكلى على ولدها، وقد خفت أن تصيبهم  
سهام الفاجعة ورماح الموت، فصحت فيهم قاصداً التخفيف  
عنهم من هول المصيبة:

- ولكن يا إخوان لماذا تبكون؟ هذه أطلال فانية. ألم يبلغك يا  
أمير المؤمنين ما صنعت الأمة من أمجاد وبطولات؟  
توقف الخليفة عن البكاء وقال:

- وماذا صنعت؟

- الحق يقال، لقد حققت انتصارات كبيرة وإنجازات  
رائعة في كرة القدم، واهتز العالم للغناء العربي، كما  
وغزت

72

القهوة العربية والنجيلة الشرقية أسواق العالم الغربي،  
وازدحمت مراكز الأبحاث الأوروبية بالعلماء العرب،  
وانتشرت الفضائيات العربية، وأصبحت الدول العربية  
مصدرةً للنفط إلى جميع أنحاء العالم وخصوصاً إلى  
أمريكا التي تم اكتشافها بعدكم بستة قرون.. وهذا  
غيض من فيض وقليل من كثير.

انفجرت أسارير البعض، وتوقف البعض الآخر عن النحيب رغبة  
في سماع ما يقال:

وما كدت انهي حديثي حتى عزف الهاتف الجوال الذي كنت  
أحمله بالموسيقى المطربة.. أخرجته من جيبي، وأخذت  
أتحدث فيه على مسمع ومرأى من أهل المجلس جميعاً:

- ألو، مين معي؟

- أهلا يا أحمد أنا موجود في قصر الخليفة العباسي  
هارون الرشيد.

- أنا مش مجنون يا ريتك تيجي وتشوف الخليفة  
بعينك.. أنا بشرحلو عن عصرنا الحاضر..

وانقطعت المكالمة.. ربما.. بسبب بعد المسافة أو قلة  
الاستقبال أو نفاذ الشحنات من بطاريته، فبادرني الخليفة  
سائلاً:

### 73

\_ ما هذا الذي تحمله في يمينك؟ مع من كنت تتحدث؟ أهذا  
من اختراعات عصركم؟  
فأجبتة بفخر واعتزاز:

\_ نعم ، هذا الجهاز من اختراعات العصر الحديث، وتحدثت  
بواسطته مع صديقي أحمد.. وهذا يسميه العرب بالجوال  
والنقال والهاتف الخليوي والموبايل والبيليفون و.. و.. أما في  
أوروبا فله اسم واحد فقط..

-ولماذا كل هذه المسميات عندكم؟ ومن اخترع هذا الجهاز؟  
-لقد اخترعه الغرب الذين كنتم تسمونهم في أيامكم باسم  
الفرنجة وقد قرأنا عنكم وعنهم في كتب التاريخ كثيراً وعن  
علاقتك بشارلمان.. وكثرت المسميات عند العرب لأنهم لا  
يتفقون فيما بينهم لا في الأسماء ولا في الأفعال - وهذا لا  
أستطيع إخفاءه عن حضرتكم - حتى أنهم يعقدون المؤتمرات  
بعد كل كارثة تحل بهم ويخرجون بنتيجة واحدة وهي الشجب

والاستنكار، فأصبح هذا يا سيدي مثلاً يتداوله الناس فيما بينهم ويقولون: "اتفق العرب على أن لا يتفقوا إلا على الشجب والاستنكار" .. ألسنتهم اختلفت، أعلامهم تنوعت، عملاتهم كثرت، الحدود بينهم أغلقت، شملهم تشتت شوكتهم انكسرت، وأصبحت بلداننا سوقاً استهلاكية للمنتوجات التي يصنعها

74

الأجانب.

غضب الخليفة غضباً شديداً لا مثيل له واحتقن وجهه حتى أصبح شديد الاحمرار وصاح قائلاً:  
-اللعنة، كفى يا رجل كفى، أخرسك الله! لقد قتلتني بحديثك هذا، ولا بد من قتلك سريعاً لأنك واحد من هؤلاء الأشرار. لقد ضيعتم الأمانة وخنتم عهد الأمة واتبعتم أهواءكم وكفرتم بالنعمة التي أنعمها الله عليكم.. وفقدتم عقولكم وانشغلتم بشهواتكم فأكلتكم الدنيا وخرجتم عن الملة.. أيها الحراس خذوه ونفذوا فيه حكم الإعدام على مرأى الناس جميعاً..  
اقتادني رجلان من نخبة الحرس الملكي وجرجراني إلى ميدان عام في المدينة كما كان يجرجر الطالب المهمل ليرفع فلقة أمام زملائه في الصف، وأنا أصبح بعد انهيار أعصابي انهياراً كاملاً: أرجوكم لا تقتلونني، أنا بريء أطلقوا سراحي! خذوا أموالي! معي آلاف من الدولارات الأمريكية، موجودة في جيوبي! أنتم ظالمون.. وين النخوة العربية؟ وين التسامح؟ وين المساواة؟ وين الأخوة؟ وين..؟ وين..؟ وين..؟ ودعا داعي الموت الناس للحضور لمشاهدة مهرجان إطاحة

رأسي عن جسدي وقيدت في يديَّ ورجلي في عامود  
خشبي وقيد

75

قلبي بأغلال من الخوف والهلع.. وأخذت فرائصي ترتعد  
وينابيع العرق "تبقى" من جبیني، وابتهلتي إلى الله تعالى  
أن ينجيني من هذا المأزق الذي أنا فيه، ودعوت الله بخالص  
أعمالي. ثم استسلمت لأمرى بعد أن "استوى العدس  
ويست السنابل".. وساعة الموت حانت.. الموت الزكام  
سينال منى، ما الذي فعلته حتى أجزى بمثل ما فعلت؟ كان  
عليه أن يكرمى بدلا من إهانتى وقتلى؟ أين الكرم العربى  
الذي كانوا يتحدثون عنه؟ ثم لماذا غضب الخليفة منى أنا  
بالذات ولم يغضب من فلان أو علان؟ هل ظن أن السبب فيما  
يحصل هو أنا؟ كان الأجدد والأولى أن يغضب من الأنظمة  
العربية وحكوماتها لأنها هي التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه..  
ولكننى نسيت أن أخبره عن الاستعمار.. يا إلهى سوف  
ألاقي ربي الآن مذبوحاً مثل الخروف.. شو اللي وقعنى فى  
مثل هذى المصيبة.. أنا مالى ومال العالم.. يا ليتنى مت قبل  
هذا وكنت نسياً منسياً.. واقترب منى رجل ضخم الجثة  
كالفيل، قوي العضلات كالمصارعين اليابانيين يمسك فى يده  
الذى جاء ليطيح برأسى.. مشاعر الخوف التى انتابتنى  
تبددت.. وأقنعت نفسى أنى سألاقي ربي وأنا على بينة من  
أمرى أنى لم ارتكب جريمة لأحاسب عليها وأن لا مجال  
للإفلات من هذه

76

الورطة.. ثم أخذ يلوح به فى الهواء وانهاه به نحو رقبتى  
فأغمضت عيني وقرأت الشهاداتين، ثم شعرت بضربة خفيفة

على رقبتني ولما فتحت عيني ألفتُ طفلي الصغير الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره وجاءني "متسنسناً"، يضربني على رقبتني ويداعبني بيديه الرقيقتين والعرق يبيل جسدي وملابسي وقد كدت أختنق، فنهضت وأنا ألهث وقلبي يخفق خفقاً شديداً. فاستعذت بالله من الشيطان ثم حمدت الله الذي ردّ إلي روحي بعد أن كدت أفقدها. واحتضنت طفلي..

77

العريس والجنّي- مجموعة

قصية

(12)

العريس والجنّي

"الجن! الشياطين! هذا هراء.. لا لا.. أظن أن هذه الخرافات والخزعبلات لا أساس لها من الصحة بتاتاً، وما أنزل الله بها من سلطان.. ما هؤلاء الجن الذين يتحدثون عنهم؟ وكيف يدخل الجنّي ونحن لا نراه في جسم إنسانٍ ثم يصبح مريضاً؟ في اعتقادي أنها أوهام نفسية.. وأفكار قديمة

متوارثة.. وعادات جاهلية متعاقبة.. أو سخافات باطنية مستنسخة من خلایا وهمية.. هذا شيء غير مألوف علينا.. ولكن الطب في أيامنا متطور جدًا.. لماذا لم يستطع الأطباء علاجه؟ مسكين رامي.. حالته تبعث الحزن والشفقة.. مسكينة عروسه عبلة لا بد أن تكون حالتها أصعب مما نتصور.. إن كان هذا صحيحًا، فالويل لهؤلاء السحرة الأشرار.. ولكن الناس ينقلون عن النبي حديثًا أن من جلس إلي عراف وصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد.. ولكن كيف تقرأ النساء هذا الحديث ثم لا تطيقه.. ومن تكون تلك الفاعلة؟؟ لماذا لا يستطيع المجتمع إيقاف هذه الظاهرة؟ حقًا إن كيدهن عظيم. يا إلهي.. أي حال وصلنا إليها نحن عرب اليوم.. والعالم المتحضر يفكر في الإبداع والاختراعات والأمة تعاني من الفاقة والجهل.. إنني أكاد أختنق.. لقد عانى ما عاناه يوم خطبته

78

ألا يكفيه هذا؟.. واليوم يريدونه أن يذهب إلى مستشفى الأمراض النفسية، ماذا سيقول الناس عنه.. مجنون دخل إلى مستشفى المجانين وعولج فيه!. الجبال التي سيربطونه بها، يجب أن تقطع.. أي جني هذا الذي أصابه؟ لن نتخلى عنك يا رامي.. ولكن ماذا يحدث لو جربنا معالجتك بالقرآن.. سوف أحضر لك الشيخ رفعت ونجرب."

أحضر الشيخ بسيارة يابانية من نوع "تويوتا"، من مسجد الثبات الذي أدى فيه صلاة المغرب.. وكان عمله تطوعيًا لا يبيغي من وراء ذلك سوى إرضاء الله ورسوله والمؤمنين.. وعلقت جميع الآمال في عنقه.. وبدأ عمله بعد أن استعاذ من الشيطان وسمى الله، وقرأ القرآن مدة ثلاث ساعات.. والنساء تنتظر خارج غرفة الطوارئ.. الغرفة التي كادت تخلو من الأثاث، اللهم إلا من سرير وكرسيين وكنبة

وحصيرة قشر.. والتي علّقت على أحد جدرانها صورة المرحوم  
الحاج خالد.. وانبرى الشيخ يخاطب المريض بعد أن قيده في  
رجليه وتحولت حالته من خنوع إلى رفض.. من هدوء وسكينة  
إلى ضجيج.. واضطراب.. وصراخ.. وعنف.. وولولة:

-من أنت ؟

-هذا لا يعنك.

زمجر الشيخ غاضبًا وصاح قائلاً:

79

-قلت لك من أنت ؟

-أنا يحزقيل بن يشاي.

-أين كنت تسكن؟

- أنا رحالة من المغاور المهجورة إلى الآبار العميقة

فالأطلال البعيدة والبيوت المهدامة.

-لماذا حضرت إلى رامي ؟

-بعثني وطفة بنت موسى "الكندرجي"، بواسطة ملك

الجان الكبير المعظم "شاؤول".

-ولماذا بعثتك؟

-لأنها تكره جارتها.. أم عروسه عبله.. وقد أرادت أن

تفرق بين رامي وعروسه.. وهي ترغب في أن يتزوج

من ابنتها "جميلة" بنت العشرين..

جلس الشيخ على صدر المريض ثم أمسك بخناقه وصاح

بأعلى صوته:

-أخرج!!!

-لا.. لا أريد أن أخرج..

-قلتُ لك أخرج!

-لا أريد أن أخرج..

80

- إن لم تخرج قتلتك وحطمت جمجمتك وجعلتك غداء  
للغربان والصقور وعبرة للآخرين..  
-لا.. لا تقتلني.. ابتعد عني..  
-لن ابتعد عنك حتى تخرج...

أخذ المحتفلون يراقبون ما يجري عن كثب في وجوه عميق  
وقد أخذتهم الدهشة والحيرة.. وغشيتهم الرحمة ونزلت  
عليهم الرغبة في الفرار حتى عجزوا عن النطق.. وامتنع وجه  
محمود وتسمرت عيناه على وجه الشيخ وغشيته الدهشة  
وأخذ يحدث نفسه:

"يا إله العالمين!! لقد اختنق رامي.. لماذا يجلس الشيخ على  
صدره.. أبهذه الطريقة يعالجون المرضى؟ بالقرآن ثم بالخنق ثم  
بالضرب! إنها طريقة قاسية للغاية.. ليتني لم أحضرك يا شيخ  
الجان.. لقد أشبعته ضرباً.. منظره الآن يثير الحزن والشفقة..  
إنه يؤلمه.. ولكن ما هذه الكلمات الغريبة التي ينطق بها؟  
النساء الجميلات! عبيرا! جني يهودي! الفتيات الروسيات!  
الخمير! النفس! يحب رامي لأنه وسيم! أنا عهدته شاباً خجولاً  
ولا يمكن أن يتلفظ بمثل هذه الألفاظ البذيئة التي لا ينطق بها  
إلا أدنياء القوم وسفهاؤهم.. في اعتقادي أن مثل هذه  
الكلمات لا ينطق بها إلا الجن.. ولا بد أن الجني قد دخل فيه ،  
وهو يتحدث الآن على لسانه مثلما يقولون.. لعنة الله على  
هذا الجني الشرير.. " لم يكن شارد

81

الذهن إلى حد بعيد، فقد استكشف كل ما كان يدور في  
الغرفة، ولم يتمالك نفسه وأحس باختناق وتجرأ قائلاً:  
-لماذا تصفعه على وجهه يا شيخ؟



-إلزم الهدوء والصمت يا محمود.. دعني أكمل عملي!  
ولن يصاب بمكروه، وهذا الصوت، هو صوت الجني الذي  
يتحدث على لسان رامي..  
-ولكن سيموت خنقًا..  
-لا تخف عليه يا محمود! سوف يخرج من جسده بعد  
قليل..

وتابع الشيخ عمله غير أبه ما يدور حوله وهو يتصبب عرقًا..  
والحاضرون يتألمون مثلما يتألم رامي.. وكادوا يختنقون من  
رائحة العرق الممزوج بالبخور؛ هواء الغرفة لم يتجدد منذ  
ساعتين ونصف.. وارتفع صوت الشيخ.. وزاد من حدة نبرته..  
وتكررت كلمة "أخرج" أكثر من عشرين مرة.. والشاب.. عفوًا  
الجني.. يرجو منه الرحمة ويطلب المغفرة.. الضربات صعدت  
وتيرتها.. الواحدة تتبع الأخرى حتى استسلم الجني للشيخ  
ولضرباته.. وخرج من موقعه الذي تحصن فيه مهزومًا مدحورًا..  
وارتمى المريض على فراشه وأخذ يتنفس بحريته كما كان  
يتنفس سابقًا..

وتحول إلى حالة فيها هدوء النفس وسكينة الروح  
وارتياح الفؤاد.. ثم

## 82

تنفست النساء الصعداء، وانزهاه الجمع عليه يهنئونه  
بالسلامة والشفاء ويحمدون الله الذي أنقذه من هذا  
الكابوس.. وفي تلك اللحظات التي كانت النساء فيها تزلزل  
أركان السماء بزغاريدها وتعبر عن غببتها وفرحها بعودة  
العريس إلى رشده.. كان المؤذن يعلن عبر مكبرات الصوت عن  
انتهاء شهر شعبان وثبوت رؤية هلال شهر الصوم.. الشهر  
الذي تصفد فيه الشياطين وتفتح فيه أبواب الجنان..

83

العريس والجني- مجموعة  
قصصية

(13)

المعلم الحاني

اسمه "الأستاذ فريد" .. هكذا اعتاد الناس على تسميته ومناداته؛ من باب الاحترام أولاً ومن باب التعريف ثانياً.. وكان يناديه بعضهم أحياناً بأبي محمود.. امتهن مهنة التربية والتدريس في إحدى مدارس القرية الابتدائية منذ عشرة أعوام. حين كانت الدنيا بخير، كانت مهنة المعلم مرموقةً، لما تحدث الناس عن مركزه الاجتماعي.. وراتبه المشرف.. وعلمه.. وعن احترامه. ولا يرقى إلى هذه المرتبة إلا الأذكىء. كان في بداية سنوات عمله الأولى مليئاً بالحيوية والنشاط.. والمدرسة أخذت جل اهتمامه.. بل جل وقته بل أشغلت جل فكره. وترى منذ نعومة أظفاره على حب الناس وخدمة مجتمعه وحب الوطن. ولكنه أخذ يؤمن أن الدنيا التي كانت قبل عشر سنوات تختلف عن دنيا اليوم وقد تغيرت؛ لأن

القانون الذي لا يرأف بالمعلمين هو الذي غيرها. الناس تغيروا.. التلاميذ اختلفوا.. والمعلم بقي على ما كان عليه، بعد أن كان يحسب له ألف حساب.. والمجتمع لا يرحم. واليوم هو الأحد، رآه يومًا أسودًا، وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا سيقف الأستاذ فريد "المجرم" أمام القاضي لسماعه ينطق بالحكم الذي سيصدر ضده. وهذه هي المرة الأولى في حياته

84

التي سيمثل فيها أمام قاضٍ.. لقد خضع للتحقيق عدة مرات منذ سنة ونيف، واعترف بجريمته. جلس فريد على المقعد الرابع في الحافلة التي تحمل الرقم 56 المتجهة نحو حي البرازيل حيثما تقع محكمة "الجزء" وهو شارد الذهن غارب الحجى، يتفكر في العقاب الذي سيناله جزاءً على فعلته، وفي الجمهور الذي سيحضر.. بل في الفضيحة التي ستحل به ثم تلاحقه وتبقى على جبينه. وسيطرت الكآبة المرة عليه، وأحس بضيق واضطراب. وكلما تذكر قسم التحقيقات في الشرطة تالت دقات قلبه وارتفع ضغط دمه. كانت الحافلة مكتظة بالمسافرين إلا أنه شعر أن لا وجود لأحد فيها سواه. مشاعر القلق تراوده بين فينةٍ وأخرى. ضاقت الدنيا في عينيه بما رحبت، وضاقت بها ذرعًا. صلى الصبح ودعا ربه أن يلهم القاضي بتخفيف الحكم عليه. أولاده الذين لم يتجاوز أكبرهم سن العاشرة ودعوه متمنين له العودة بالسلامة. أما أصغرهم فقد طلب منه أن يشتري له من المدينة سيارةً سريعةً توجه بواسطة "ريموت".. وطبع أبوه على خده قبلة واعدًا إياه بإحضارها مهما بلغ ثمنها ولكن في يوم آخر غير هذا اليوم..

\*\*\*

85

## - محكمة !!

وقف الناس تبجيلاً للقاضي، ودخل مع معاونيه يحمل كل منهم أوراقه بيمينه وقد لبسوا عباة اتهم السوداء.. فخطر في ذهنه ما حدث له يوم كان طالباً في الصف الثامن حين دخل معلم اللغة العربية ومربي صفه فوق الطلاب احتراماً له رغم أنه كان يلبس في ذلك اليوم ملابس "مهرجلة"، الأستاذ عبد الخالق حفظ قصيدة العلم والتعليم للشاعر أحمد شوقي عن ظهر قلب والتي تبدأ ب:

قم للمعلم وفه التبجيلا  
كاد المعلم أن يكون

رسولاً

أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشيء أنفساً وعقولا  
وحضر فريد إلى صفه دون أن يحفظها فضربه المعلم ثماني ضربات بالعصا على كفيه.. فاضطر إلى حفظها في اليوم التالي..

ولما جلس الحاضرون شخصت عيونهم وتلفتوا نحو المنصة حيث يجلس القاضي وراء خوانه الكبير وقد جلست على يمينه فتاة شقراء تدل ملامح وجهها على أنها من يهود روسيا، كانت تضرب بأصابعها الماهرة الممشوقة على أزرار حاسوبها كل ما يمليه عليها.. وبعد أن انقطع الهرج والمرج، وخيم السكون على المكان.. وكان الناس قد أصبحوا بين يدي الخالق الديان.. نادى القاضي :

- القضية الأولى والتي تحمل الرقم 25369 - والمتهم

هو

انتفض الرجل من مكانه، واختلج قلبه اختلاجات سريعة..  
ورفع يده قائلاً :

- نعم سيدي القاضي..

وتوجه إلى المكان الذي طلب منه أن يقف فيه وهو ذات  
المكان الذي يقف فيه المجرمون على اختلاف أنواع قضاياهم..

- أنت متهم بصفع الطالب رفعت عادل كمال، وقدم  
أبوه ضدك شكوى لدى الشرطة وتم التحقيق معك  
ثم اعترفت

بالتهمة.. هل لديك ما تضيفه..

- سيدي القاضي.. في الحقيقة أنني ما صفعته انتقاماً

منه ولا لأنني في خلاف مع والده.. ولكنني صفعته

في خضم مشاجرةٍ مع زميل له.. وكان الشجار عنيفاً

وقد أدمى كل منهما وجه الآخر.. حدث هذا في

ساحة المدرسة أثناء الاستراحة حين كنت مناوباً..

وحاولت من جانبي فض النزاع بينهما، وهذا من

واجبي، وإبعاد كل واحد منهما عن الآخر إلا أنني لم

أوفق في ذلك إلا بعد أن صفعتهما..

87

- ألا تعلم أن عملك هذا لم يكن أخلاقياً ولا تربوياً.. هذا

هو الواقع.. أهذا ما تعلمته لتصبح مربياً!! كان الأجدد

بك والأولى أن تبحث عن طريقة أخرى لحل النزاع

بينهما وإصلاح ذات بينهما.. تذكر أننا نحن اليوم في

القرن الحادي والعشرين.. لا تكن فظاً غليظ القلب

ولا عنفوانياً.. ووفقاً للقانون الذي أصدره المدير العام

للوزارة يمنع بموجبه استخدام الضرب في المدارس كوسيلة للتربية أو للتعليم منعاً باتاً.. وقد خالف هذا القانون.. ولذلك يحكم عليك اليوم ما يلي وتدون في سجلك في الوزارة نسخة منه:

- (1) أن يخصم من راتبك ما نسبته خمسون بالمائة لمدة ستة أشهر متتالية.
- (2) أن تعمل عملاً مجانيًا خدمةً للجمهور لمدة ثلاثة أشهر متتالية.. كل يوم تعمل فيه ثلاث ساعات بعد الدوام المدرسي في قريتك.. وسيصلك بلاغ خلال ثلاثة أيام بالبريد في هذا الشأن.
- (3) أن يرسل إليك كتاب تعزير شديد اللهجة من وزارة المعارف والثقافة..

88

ثم أردف قائلاً:

▪ القضية التالية..

" أي مهنة هذه التي جلبت لي الذل والمهانة؟ كان ينبغي علي أن أقف في ذلك اليوم متفرجاً ومن غير أن أتدخل.. أي رجل هذا؟ قلبه أقسى من الحجر. ليتك يا خالد تعرف ما فعله بي خالك! إنه رجل لا يستحي من أحد.. أي غاية كان يرحوها من هذه الشكوى؟ وضدي أنا بالذات! منذ هذا اليوم لن أسأل طالباً عن واجباته البيتية.. ولن أعاقب تلميذاً سواءً نجح أم فشل في الامتحان.. أهذه هي الديمقراطية

التي يتغنى بها أبناء عمومتنا.. يا إلهي! نصف معاشي! كيف سيعيش أبنائي؟ على الزعتر والخبز الناشف وزيت الزيتون؟ إن راتبتي يكامله لا يكفي لمصاريف أسرتي؟ ما هذه المصيبة التي حلت بي؟ خدمةً للجمهور؟ أي جمهور هذا الذي يتحدث

عنه سعادة القاضي المحترم؟ يا ويلي.. آمالي تحطمت..  
أحلام أبنائي تبددت.. هدموا بيتي.. ليتني لم أصبح معلماً قبل  
أن أذوق طعم البهذلة و"المعملة".  
أفاق فريد من أفكاره هذه بعد أن أوشك أن يصطدم  
برجل طويل القامة.. وخرج من بناية المحكمة غاضباً "مبرطماً"،  
وهو يقرأ قرار الحكم الذي صدر ضده قبل ربع ساعة بالضبط،  
كان يشعر

89

بضيق فأرسل زفرة طويلة... وكان جائعاً فجال بنظره  
يميناً وشمالاً... ثم استرعت انتباهه رائحة الفلافل والشاورما  
المنتشرة في أجواء المنطقة وتبعث من ذلك المقصف القريب  
الذي يجاور الشارع من الجهة المقابلة وتعبق في أنوف  
الجائعين.. كان يدرك أن جيبه الخاوي لا يحتوي على النقود  
الكافية لشراء رغيفٍ من الشاورما فاشترى منه جريدة ورغيفاً  
محشواً بالفلافل وزجاجة عصير برتقال.. لقد أحب الأكلات  
الشعبية منذ نعومة أظفاره.. وكانت الشمس قد أخذت موقعها  
في كبد السماء. واتخذ له مجلساً على مقعد حديدي في ظل  
المظلة الكبيرة القائمة وسط مائدة حجرية مستديرة، وأخذ  
يلتهم طعامه بنهمٍ وشغفٍ وهو يقرأ عنواناً كبيراً كتب بالخط  
العريض مرفقاً بصورة ملونة:  
" طلاب مدرسة ثانوية في تل أبيب يحرقون سيارة مربيهم  
انتقاماً منها بعد فصل زميلهم المشاغب لمدة ثلاثة أيام  
متتالية".

(14)

### حقيبة السفر

مع إشراقة شمس ذلك اليوم.. يوم الراحة.. اليوم الذي تنطفئ فيه جميع محركات المركبات، والقاطرات والطائرات.. اليوم الذي يحرم فيه العمل فتغلق فيه الحوانيت أبوابها.. وتمنع فيه إضاءة المصابيح، وتشغيل كل ما يعمل على الطاقة الكهربائية.. اليوم الذي يخرج البعض فيه للصلاة من أجل التقرب إلى الرب فتزدحم الكنس بهم.. بينما ينام الآخرون حتى ساعات الضحى ومن ثم ينطلقون نحو المتنزهات لشواء اللحم.. وحينما أطلت الشمس بوجهها الوضاح الجميل.. كان بحر السكون وظلام الصمت قد أغرق كل أحياء المدينة من شرقها إلى غربها فمات أهلها ميتتهم الصغرى وأصبحت كأنها مدينة أشباح.. شوارعها المهجورة غزتها الغربان السوداء وهي تبحث عن جيفة هنا أو لقمة هناك.. وسمعت زقزقات العصافير بوضوح وبلا تشويش.. ومع بزوغ وجه نور شمس الأول من أيار الدافئة من وراء الأفق البعيد من الشرق.. فتح محمود باب سيارته وجلس خلف المقود وأشعل محركها فشق به بساط الصمت إلى نصفين.. ثم أخرج من حقيبته الصغيرة علبة السجائر وأخذ منها سيجارةً وأشعلها بقداحة السيارة.. ولم تكن هذه المرة الأولى التي

91

يخالف بها القوانين الشرعية التوراتية.. ولم يكن هو الوحيد من بين المخالفين.. لأن الحي الذي يسكنه علمانيٌّ بسكانه.. غربي بذاته.. ولا يقيم للدين وزناً.. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يغادر فيها بيته في هذا اليوم المقدس..



ولكنها المرة الأولى التي يزور فيها مسقط رأسه.. "قرية الرمان".. حيث ترعرع ونما.. وقضى فيها أروع أيام طفولته الأولى.. بين أترابه.. وتمرغ معهم بالتراب.. وكان قد ودعها قبل عشر سنوات حينما طرده والده من البيت.. فوقف في ظاهرها وفي يمانه حقيبة السفر.. وألقى عليها نظرتة الأخيرة المودعة وقال: "عليك سلام يا قرية الرمان.. يا قرية الجهلاء والمتخلفين والرجعيين والتعساء.. ويا قرية من لا يعرف الحضارة والمدنية... ويا ويا ويا...". لم يسمع عن أخبارها إلا في السنوات الأخيرة.. بعد أن التقى بـابن عمه سعيد صدفة وزاره في بيته وأخذ يتوسط له من أجل ترتيب زيارة إلى بيت والده.. كان قلب أمه يحترق لغيابه مائة مرة.. جدته ماتت دون أن يراها.. كان يحبها كثيراً وكانت تعطف عليه كلما تصايح مع أبيه.. فؤاد ابن عمه توفي في حادث طرق.. ابن فلان أصبح طبيباً.. فلانة طلقها زوجها لأنه سمعها تتحدث مع شخص غريب عبر الهاتف النقال.. والانتخابات المحلية على الأبواب.. المرشح الفلاني تدعمه حملتان كبيرتان.. الأولى موعودة

## 92

بوظيفة كبيرة والثانية موعودة بمنصب نيابة الرئيس.. أه يا قرية الرمان لا بد أنك قد تغيرت.. ترى هل تغير سكانها؟ وثمة أمر يحيره.. كيف سيلاقي أمه وأباه؟ ماذا سيقول لهم لو سألوه مرة أخرى عن سبب اختياره لهذه الزوجة؟ وكيف سيقابلهم؟ ولماذا غاب عنهم هذه المدة الطويلة؟.. لا لا.. لن يقولوا شيئاً لا بد أن الزمن قد صقلهم من جديد.. معتقداتهم تغيرت.. أساليب فهمهم تبدلت.. عاداتهم عفا عليها الدهر وشرب.. ثم لو قالوا فهل سيغيرون شيئاً؟ اليوم كل شيء أصبح أمراً واقعياً.. الأولاد الثلاثة.. مكان العمل.. الزوجة..

السيارة الفاخرة.. الفلوس .. البنوك.. المدرسة.. الشقة.. ثم كلمة سامحيني يا أمي ستمسح كل ما مضى.. وتقبل جبينها ورأسها ويديها ترد لها اعتبارها من جديد.. وهي تعرف أنني ما رغبت في الارتباط بابنة أختها "فهيمة" من أول يوم ومنذ اللحظة الأولى.. أنا لم أذنب.. ثم لماذا لا أختار أنا بنفسني الزوجة التي أحبها؟؟ وما الذي ينقص "تال"؟ إنسانة متحضرة ومثالية تحترم الصغير والكبير.. مثقفة وجميلة.. لم تفرق بين الإنسان العربي والإنسان اليهودي.. أشعل سيارته وهو يحس أن يده ترتجف.. نبضات قلبه تسمع من شرايين عنقه.. ثم أحس أن حرارة جسمه قد ارتفعت.. لم تكن

### 93

ثمة ذبحة صدرية.. ولم يشعر بألم في صدره.. هو يعرف أنه منفعل جدًا.. يشعر وكأن الرجل الأولى تتقدم والثانية تتأخر.. أطفأ المحرك وفرك سيجارته.. وعاد إلى البيت متظاهرًا أنه نسي أن يأخذ من الثلاجة قنينة الماء البارد.. وقبل أن يغادر توجه إلى زوجته الممددة في فراشها وطبع بشفتيه على خدها الناعم الذي يشبه قطعة الجبن قبلته المعهودة.. وهمس في أذنها همسًا حرصًا على بقاء الأولاد نائمين وباللغة الروسية:

- لن أتأخر عن الساعة الثانية بعد الظهر..  
ورطنت قائلةً له بلغة أمه:

- ديع بالك على خالك يا مخمود...

أشعل المحرك مرة أخرى وأخذت دواليب السيارة تتحرك إلى القرية التي كانت معلقة منذ مدة طويلة على حائط إحدى خانات الذاكرة.. فتذكر خبز أمه الساخن الذي كان يتناوله صباح كل يوم مع اللبن والشاي وزيت الزيتون.. وتذكر "فاطمة"

ابنة صفه، الفتاة التي أحبها حبًا صادقًا ولما صارحها بذلك وبخته توبيخًا شديدًا وبقي هذا التوبيخ مخزونًا في ذاكرته.. ولا زال يذكر أنه تم فصله بسبب هذا الأمر عن المدرسة لمدة أسبوع.. ترى أين أنت يا فاطمة اليوم!! لا بد أنك تزوجت وأنجبت الأولاد والبنات.. لقد كنت أجمل فتاة

94

في الدنيا.. ثم أخذت حدقاته ترصدان الطريق من جوانبه وفي جميع الاتجاهات.. ثمه لافتات كبيرة نصبت على جانبي الشارع ترشد السائقين في التوجه إلى قرية الرمان.. أهذه طريق القرية؟ أين الطرق القديمة التي كنا نعبها كل يوم أثناء عودتنا من العمل في الكيبوتس؟ الدنيا تغيرت.. يا سلام.. كنا صغار نرعى الأغنام في هذا المكان ونبحث عن بقايا الفستق بعد تلقيطه.. يبدو أنه قد امتلأ الآن بالمصانع! والمتاجر! والبيوت السكنية! أين أنت يا قرية الرمان؟؟ أين أنت؟

\*\*\*\*\*

جلس القوم في صحن الدار وقد اختبأوا من الشمس الأيارية التي أطلت بوجهها الكبير من ناحية الشرق.. ثم أخذت تلقي بنظراتها الإشعاعية القوية المسلطة نحو الكتل القريبة والبعيدة وكأنها تبحث عن شيء فقد منها منذ سويغات ولم تجده فاستبد القلق بها.. واستظلوا منها بظل منزل أبي محمود الظليل.. كانت طلائع الشوق تغمر وجوههم بغطائها المطرز بخيوط ملونة بألوان زاهية من الفخر بعروبتهم، ومن ألوان الاعتزاز بدينهم، ومن ألوان الزهو بقريتهم.. ورؤية الغائب العائد الذي حاسب نفسه حسابها الدقيق فندم وخسر كانت قد احتلت مساحات شاسعة في مخيلاتهم فوطدت أقدامها

95

وأقامت حواجزها الذهنية الدائمة.. وانبروا يتبادلون أطراف الحديث عن محمودٍ عندما غادر القرية وهو يحتضن حقيبة السفر بين ذراعيه وعن غيبته الطويلة وعن زواجه من فتاة يهودية وإقامته في أحد أحياء تل أبيب الشمالية طيلة غيابه.. وانبرت الأم تهییء البيت من الداخل والخارج دون انقطاع .. صحيح أنها كانت ناقمة على ولدها الذي لم يسمع لكلامها ولم تنس اليوم الذي جمع فيه ملابسه وقرر السفر إلا أن قلب الأم الرؤوف لن يتخلى عنه مهما حصل فهو فلذة كبدها.. وحتى لو تزوج من يهودية روسية فما العيب في ذلك ألم يتزوج عودة عبد الوهاب من يهودية يمنية؟ ورزق رمضان من إيطالية؟ وطالب مصطفى من إنجليزية؟ و.. و.. و..

وكان من عادة الاخوة والأخوات زيارة الأهل في كل يوم سبت.. وجعلوا لهذه الزيارة قدسيتها الخاصة ومكانتها النفسية.. يفرح لها الصغير والكبير.. فهي مرتع الصغار وملهاتهم.. وملتقى الكبار ومؤتمر تواصلهم الأسبوعي.. وهي بمثابة عيد دائم ومتواصل لا ينقطع.. وفي هذا اليوم لم تكن الدار لتخلو من النار.. فرائحة الخبز والطبخ والشواء تنبعث من ذلك المطبخ الرابض في الزاوية الشمالية الشرقية إلى الأجواء القريبة والبعيدة.. وكانت الدار كما كانت منذ عشرين عاماً.. يحيطها سور من حجر "جماعين" وصل إلى المترين

96

وأكثر، تتوسطها شجرة توت ضخمة كان محمود قد سقط عنها وهو في الصف الثاني الابتدائي فانكسرت ساقه اليمنى ثم نقله أبوه إلى المستشفى القريب وجبرت بالجبس ثم تغيب عن المدرسة شهراً كاملاً..

قُدِم للحاضرين طبق<sup>16</sup> من الشاي الثقيل، قدمته "سميرة" كبرى أخوات محمود.. بيد أن أحدهم طلب منها إحضار كأس "القهوة السادة" التي يحبها واعتاد على تناولها في مثل هذه الساعة منذ عشرين عاماً.. فجلبته إليه على عجل.. ولبث الأطفال يمارسون نشاطاتهم الحارتية التي اعتادوا عليها غير أبهين بما يحدث.. ثمة ولد فيهم لم يكن على درايةٍ كاملةٍ بما يلعبون.. بلغ خالد الحادية عشرة من عمره وانتظر قدوم أخيه الأكبر الذي لا يعرفه على أرض الواقع انتظاراً طويلاً.. وكم تمنى في قرارة نفسه أن يعود وقد أحضر له هديةً غاليةً إما أن تكون حقيبة مدرسية جديدة أو دراجة هوائية يطوف بها كل أحياء القرية.. كان يلعب مع أترابه وقلبه متعلق بمجلس الكبار.. كان الأولاد يحدثونه وهو يتفرس في وجوه الجالسين كأنما ليمتحن أثر محبتهم لمحمود دون أن ينيس بكلمة.. وحاول جر أصدقائه نحوهم ولما لم يجد منهم أذناً صاغيةً تركهم فجلس على سلم المنزل.. وقال في نفسه: "إني مشتاق لرؤيتك يا محمود، ترى هل هو الآن مثلما

97

رأيته في اليوم الصور أم تغير؟ ولما أضافحه وأقبله سأقول له أنا خالد أخوك الصغير.. ها أنا ذا قد كبرت" .. ولما أن جاوزت الساعة العاشرة والرابع هتف أبو محمود بارتباك قائلاً:  
- "شو مالو إتأخر... يا ريت يا سعيد لو ترفعو تلفون وتشوف وين صار!!!"

استل محمود هاتفه النقال من جيبه المثبت على خاصره الأيمن كما يتناول الشرطي مسدسه وأخذت أصابع يده اليمنى تتحرك فوق الأرقام التي حفظها عن ظهر قلب وهو يتلمس مواضع الرضا من عمه ومن الحاضرين.. وشعر أنه قام

بمهمة عجز عنها الآخرون وتقايس عنها الكثيرون.. ثم قال بصوت رقرق عذب:  
" ألو محمود!! صباح الخير!!....."  
أغلق الشاب الهاتف وقطب حاجبيه وقال في دهشة:  
" غريب هذا مش صوت محمود بجوز النمرة غلط..  
وجرب النمرة مرةً أخرى وانتظر الجواب في صمت مهيب إلا أن الخط كان مشغولاً.. أغلق الهاتف ثانيةً ووضعها على "الطريزة".. وما هي إلا لحظات حتى أخذت موسقة هاتفه تعزف سيمفونيتها المألوفة التي أحبها..فتناوله ثانيةً وقال:  
" ألو!!....مين الشرطة؟.... أنا ابن عمه! شو صارلو؟.... أخذتو

98

سيارة الإسعاف.... وين صار هذا الحادث وكيف؟.... مع شاحنة في أول البلد؟؟؟.... طيب هاينا جايين... ".  
تغيرت الأجواء في لحظات ووقف الرجال منتفضين يعلنون حالة الاستنفار القصوى.. فيما توقفت النساء عن عملها وتركت ما كانت تحمله بأيديها وخرجت تستطلع الخبر.. أما الأطفال فقد تجمدوا في أماكنهم تجمد الشجر والحجر ودب الذعر في قلوبهم وأحسوا أن الدنيا أغمضت أجفانها فأصبحت لا ترى شيئاً.. فيما أخذت الأم تولول وتصيح صياحاً منكراً على غير عاداتها.. وما هي إلا ساعة واحدة حتى أعلن المؤذن من مكبرات مئذنة مسجد السلام وهو يقرأ آية الموت ومذاقه عن وفاة "محمود بن زكي الخلال".. ثم امتلأت الدار بالزوار.

99

(15)

### الغرب

ثمة رجل غريب كان يتردد كثيراً على مسجدنا الكبير الذي اعتدت الصلاة فيه لقربه من منزلنا.. صلاته التي كان يخشع فيها خشوع الأولياء والصالحين ويواظب عليها مواظبة طالب مجتهد في مدرسته ومتفوق في صفه، يطيل السجود فيها إطالةً غير معهودة حتى ظننته مرةً أنه قد توفي في سجوده وخرجت روحه إلى بارئها وبقي على الوضع الذي فيه أتته المنية.. ولقد رأيت ذات يوم يلحق صلاته بكثير من الاستغفار والتسبيح دام نصف ساعة أو يزيد على ذلك.. وكان إذا دخل المسجد، دخله خلسةً دون أن يشعر أحداً.. فلا يعلم أحد كيف دخل ومن أي باب دخله.. وإذا خرج منه يختفي فجأة وكأن الأرض ابتلعتة.. ولقد دفعني فضولي الزائد مرةً أن أراقب الرجل لمعرفة مكان سكناه أو لمعرفة شيء عن حقيقته التي أثارت اهتمامي.. ففوقفت على عتبة الباب الذي اعتاد أن يخرج منه دوماً بعد أن صلّيت الظهر أنتظر خروجه لكنه لم يخرج.. ولما رميت ببصري إلى جوف المسجد رأيت المسجد خالياً.. حتى إذا نظرت إلى الباب الواقع في الزاوية الشرقية شاهدهته يلبس حذاءه ويخرج منه بسرعة.. أرخيت لساقِي العنان فوصلت الباب في لحظات لكنني لم أجده.. لقد

100

اختفى من الدنيا... ما هذا؟ أملك هو أم جنّي؟ كيف اختفى؟؟ هل عرف أنني أنتظره؟؟ ترى من يكون هذا الشخص؟ أين يسكن؟ من أين جاء إلى مسجدنا؟.. أسئلة كثيرة أخذت تراودني وتحيرني وتحوم في خاطري مثلما يحوم

النسر في السماء وقد أوشك أن ينقض على فريسته.. وازداد فضولي لمعرفة أكثر فأكثر..

وفي ذات ظهر قررت الخروج من المسجد آخر الناس.. ولما فرغ الناس من صلاتهم أمطرت صديقي "مروان" بوابل من الأسئلة، مستفسراً عن الأهل والأقارب والأصدقاء والعمل والراتب وما إلى ذلك، أشغلته بها متعمداً وذهني مشغول في المراقبة، لكنه ظل ساجداً سجوده الطويل والأخير.. وفي اللحظة التي توجهت فيها إلى "البراد" القريب لأطفيء حر الصيف بجرعة من الماء البارد، اختفى الجنّي.. اختفى ولم أعد أراه في المسجد ثانية.. اختفى الرجل شهريّن كاملين واختفى من ذاكرتي ولم أعد أشغل تفكيري به بعد أن أقنعت نفسي أنه مجرد رجل عابر سبيل..

والرجل، على ما يبدو عليه، يبلغ الأربعين من عمره.. طويل القامة، نحيلها، أبيض البشرة مشربة بالحمرة، تظهر على وجهه قسّمات فيها شيء من الجمال.. سريع في مشيته، يحرك ذراعيه إلى الأمام

## 101

والخلف كأنه جندي في حفلة استعراض عسكري.. بطيء في صلاته.. كثيف الشعر، لا بياض فيه، يرّجله إلى يمينه تاركاً فرقة خُطت بيد مهندس ماهر..

وأهل الحي من عادتهم إذا خرجوا من المسجد، تدفقوا إلى مقهى الحاج "عرفة" القريب من الناحية الشمالية، لاحتساء القهوة العربية الأصيلة، أو لشرب مشروب بارد، وهم ينفضون سجاثرهم على الأرض، وسرعان ما يتظاهرون بالجوّد متدافعين من أجل دفع "الحساب".. ثم يخوضون بحراً من الأحداث السياسية المحلية "فيشلّحون" الرئيس والأعضاء من الائتلاف والمعارضة من ملابسهم الداخلية والخارجية، ثم



يلبسونها لرجلٍ آخر أجمل خبرةً وأرفع علمًا وأوسع عدلًا وأكثر رحمةً وأعمق فكرًا.. وإذا ما طغى على أخبارهم حدث عالمي عاجل يجلب الانتباه أو نبأ رياضي يثير الاهتمام، فتح الحاج عرفة لهم التلفاز وتجمدوا في مقاعدهم وشخصت أبصارهم وفتحوا أذان رؤوسهم وقلوبهم كأنهم يجلسون أمام الواحد الديان في يوم الحساب.. وإذا لم يجدوا لا هذا ولا ذاك، عبثوا بورق "الشدة" أو بحجارة "الدامقة" أو "الزهر" أو "الدومينو" .. المقهى لم يكن له خاصية عندي كما هو عند كثير من الناس ولا مكانة له في قلبي مثلما هي في قلوب الآخرين.. ولا رفعة كما

## 102

يتصوره البعض، ولم أكن من رواده الدائمين مثل هؤلاء الذين لا يستطيعون فراقه وكأنه كعبتهم التي يحجون إليها.. وزيارتي له متقطعة، تصل في الشهر إلى ثلاث أو أربع مراتٍ إلى أقصى حد.. ولما زرته هذه المرة وجدت صاحبي يلعب "الشدة" مع شبان المقهى ويحدثهم كأنهم منسجمون لبعضهم من زمن طويل انسجامًا عجيبًا.. تسللت إلى ساحة اللعب وأخذت أتصلص في مراقبة المتسابقين واسترق السمع لأحاديثهم حتى دنوت منهم دنو المعلم من الطالب وقت الامتحان.. فسمعته يتحدث بجمالٍ اختلطت غالبية مركباتها بالعبرية الغربية وقليلًا من العربية الريفية.. أسئلتني الكثيرة التي طرحتها عليهم لم تعجب بعضهم، تدخلني في مجرى اللعب أثار حفيظة البعض الآخر.. وفي حقيقة الأمر أن تدخلني قد آل إلى انهزام الرجل شر هزيمة فقام وغادر المقهى وهو يجر أذيال الهزيمة..

لم تكن هذه الحادثة لتؤثر على الرجل وعلي حضوره إلى قرية "أم المقاهي" المتواصل.. وخصوصًا بعد أن أشيع أن

"مبروكة" بنت حارث البنشرجي ابنة الخامسة والعشرين التي طلبها "موسى الحداد" قبل خمس سنوات ورفضته لأنه حداد، قد خطبت.. وخطيبها هو شخص من قرية "الخروب" من منطقة نابلس.. ويدعي "مالك".. شخص يعمل في صناعة الجلود في تل أبيب. لم أكن أتصور

103

أبدأ أن الغريب الذي خسر بعضاً من ماله في المقهى يكون عريساً وزوجاً "لمبروكة".. وخصوصاً بعد أن عُرف أنه غادر قريته حفاظاً على حياته وخدمة لغيره.. وبعد مرور أسبوعين على حادثة المقهى واصلتني دعوة للمشاركة في حفلة شواء عند أحد الأصدقاء.. ولما مررت من أمام بيت "الحارث البنشرجي"، سمعت أصوات غناء وزغاريد نساء مصحوبة بضربات منسقة تنسيقاً جميلاً على الطبل والدفوف.. وكان تقديري صائباً بعد أن استفسرت واستنتجت وعرفت أنه يوم زفاف "المبروكة" إلى "الغريب"، ولكن الغريب أن الغريب قد منح بيتاً جديداً وقطعة أرض مزروعةً بأشجار الزيتون كهدية رمزية على زواجه من مبروكة، عندها عرفت أن للغريب قدراً كبيراً وحظاً يحسد عليه.

104

(16)

### الإشاعة

البيت الذي يسكنه "خليل" لم يعد يُطاق، والسعادة التي كان ينشدها ويسعى لتحقيقها طارت من بين يديه بعد أن كانت تلازمه مثل ظله في نومه ويقظته ثم ضاعت إلى أبد الأبدين.. كم كان يتصور نفسه عريساً يزف في شوارع القرية وهو يلبس أبهى حلة! وكم كان يحلم بتلك الفتاة التي أحبها وتصور نفسه يمسك بذراعيها ويطير بها إلى فرنسا! لكنها اختفت بعد أن طار بها غيره.. والطريق التي رسمها في مخيلته أغلقت بحواجز ظرفية وبأسوار منهجية.. فلا "المادة" تسمح له ببناء بيت ولا الموقف يسمح له بالاقتران ممن أحب.. أخذ يشعر بالإحباط وسوء الحظ وضيق الظن وتفاهة الحياة وبعد الفرج.. والفشل يلاحقه بعصا غليظة في كل مكان وزمان.. وقريته لم تعد تطاق أيضاً.. لم يبق أمامه إلا السفر والهجرة إلى حيث هاجر غيره من الشباب. وقد عبر عن فشله باللجوء إلى كروم الزيتون الواقعة في الناحية الشرقية من قريته، والجلوس تحت الزيتون الرومية الكبيرة القريبة من بئر "رأس الخروب".. ابتكر صنعةً جديدةً تطلبت ريشةً وأواناً زيتيةً وبعضاً من الأوراق البيضاء.. الكرم والصخور والصابر الحدودي من أوائل معالم رسوماته.

105

في ذات مساءٍ طويت رسمته وحُزمت أمتعته وتوجه إلى المقبرة لقراءة الفاتحة على روح والده.. الجبانة خاليةً من الأحياء.. والشمس وضعت لمساتها الأخيرة على البلاد في هذا اليوم.. نباح الكلاب المحمول على الهواء الرطب القادم من الغرب من جهة القرية يسمع بوضوح مع أن القرية تبعد عن المقبرة ألفين وخمسمائة متر تقريباً.. وللقبور رهبة لا

تضاهيها رهبة.. وحشتها.. بعدها.. وجمودها كلها تدل على أنها تكابد الليل الذي يطبق غطاه أيما إطباق.. وصمت القبور له صدى قوي في أذنيه.. لم يأت في حياته قط إلى مقبرةٍ إلا مع مرافقين.. ولكن في وضوح النهار.. كثيرًا ما كان يسمع من الناس أن للمقبرة حارس جنّي ممسوخ له قرنان يحمل بيمناه سيقًا يركب على جحشٍ ضخّم ولا يخرج إلا بعد غياب الشمس.. لذا فقد تجنب المرور من جانبها منذ صغره.. عندما اقترب ووضع قدمه اليمنى على العتبة تذكر قول معلم التاريخ الأستاذ شاهين وهو من مدينة الناصرة عندما سئل عن الموضوع: "إن هذه الإشاعات باطلة لا تمت للدين بصلة وما هذه إلا هرطقات من صنع العجائز" .. ومع هذا شعر أن قدميه تتواءم بحمله وأن الخوف من هذا الجنّي وجحشه ما زال قائمًا.. ومن يدري ربما يخرج له فجأةً فيداهمه من الخلف.. رمى ببصره إلى الورا فلم يجد شيئًا.. رماه إلى

106

جانبه فلم يجد إلا القبور الصامتة.. تقدّم بضع خطواتٍ ثم عزز نفسه بقليل من الشجاعة وتسلح بحجر كبير ليديك به رأس ذلك الجنّي وجحشه إن هاجماه على حين غفلة.. جلس أمام قبر أبيه ووضع الحجر إلى يمينه وظلت حدقاته الجاحظتان تراقبان أرض المقبرة من جميع نواحيها وخارجها، وأذناه ترصدان كل حركة قد تحدث في المنطقة ولما اطمان شرع في قراءة الفاتحة.. وما كاد ينهي الفاتحة حتى أحس بدمه الساخن يسري في شرايينه العلوية المؤدية إلى نافوخه.. وهذا أدى بدوره إلى انتصاب شعر رأسه وأحس أنه أصبح حصنًا حصينًا من كل مارد ضال وشيطان مارق ثم أتبعها بسور وآيات حفظها منذ أيام المدرسة.. حتى إذا أدركه الوقت

تحسس قبر والده فوجده باردًا.. فدعا له في سره بالجنة  
والنعيم والغفران..

ودع المقبرة بعد العشاء بقليل وأدرك أنه قد حقق ما  
لم يحققه أحد من قبل وهذا إنجاز رائع في حد ذاته وهو الآن  
مستعد أن يتحدى أي إنسان. قال في نفسه: سأخبر الناس  
جميعًا أن لا جنني ولا جحش في المقبرة.. وأني قد دخلتها  
ليلا دون أن يحدث لي مكروه.. ولا أدري لماذا زرعو الرعب  
في قلوبنا.. وحصدوا الطاعة من نفوسنا.. ها نحن الآن قد  
كبرنا وتطلعنا وتعلمنا وعرفنا أن هذه الإشاعات السخيفة  
مخلوطة بحصى الكذب

## 107

ورمل الدجل.. كذب مبني على كذب تناقلته الأجيال  
عن بعضها البعض.. وفي اعتقادي أنها منافية للعقل  
والمنطق.. ها هي الآن قد جردت من الملابس وانكشفت  
على حقيقتها بعد أن كان يكتنفها الغموض.

باب بيت الأموات الذي خرج منه تقوم على جانبه  
زيتونتان.. أرخى لرجليه العنان منطلقًا نحو القرية وهو خافق  
القلب أملًا أن يستأنس بأول نور يصل إليه. لكنه استأنس  
بـ"لطيفة البنفسجية" التي رآها تهش بعصاها الغنم راجعةً من  
كرمها القريب وتحمل على رأسها حزمةً صغيرةً من الحطب  
وفوقه قليل من العشب اليابس.

دنا منها دنو المستغيث بالماء من العطش الشديد  
لاهثًا سابقًا في بحر الرعب.. بسملت واستعادت وتمتمت  
قائلة:

-مالك يا خليل! شو صار لك؟ ليش بتركض هيك؟ طلعلك  
الجني أبو قرنين مع جحشه؟  
- لا يا لطيفة لا.. لو تعرفي شو صار معي؟

- شو صار احكي!  
- كنت في المقبرة قبل العشا وسمعت صوت من قبر  
"رقية أم الترمس" اللي ماتت قبل أسبوعين..  
ناداني القبر باسمي

108

وصار يحكي معي حتى هذي اللحظة وقال لي أشياء  
كثيرة.. وطلب مني أحكيها لكل الناس.. وقالت لي  
المرحومة.....

لدى سماع تلك الكلمات الخشنة، سكب الرعب همومه في  
نفس "أم يعقوب" وأدركت أنه إن تابع حديثه فقد يصب إبريقاً  
بل دلوًا كبيراً أو برميلاً ثقيلًا من الخوف المغلي في قلبها  
الشفاف.. تظاهرت أنها تريد رد الكباش ولما عادت تمثلت كأنها  
لم تسمع شيئاً وهي تغير مجرى الحديث بقولها له:  
- شو صار مع ابن "عبد الله الزغير"؟ وين صار الحادث

معه....

ومع مطلع الصبح وعودة الحياة إلى دنياها والأرواح إلى  
أجسادها، واستيقاظ الأحياء من سباتهم الذي تشابه نوعاً ما  
مع نوم أصحاب الكهف وكلبهم في كهفهم، اشتعل الخبر  
اشتعال النار في البنزين، قدمت أمه إليه وأيقظته لتسأله عما  
سمعته من نساء القرية في دكان "الحاج عبد الغافر" حتى  
تتأكد إن كان الخبر صحيحاً أم لا.. أكد لها صحته إلا أنه وعدّها  
أن يخبرها عن تفاصيله بعد تناول الفطور.

ومع اقتراب الظهيرة بدأت وفود النساء التي تغطي  
شعرها بالمناديل والكوفية الفلسطينية، تتدفق إلى بيت أبي  
خليل وتدفق بابه

109

وهي متعطشة لسماع أخبار النسوة المعلقة بشعورهن فوق نار حامية وتحتهن الأفاعي العملاقة السامة والعقارب الضخمة القاتلة، وتلك اللاتي تسحبهن ملائكة شداد غلاظ بالكماشات الحديدية من السننهن وهي مصفدة بالأغلال إلى أحواض الزيت المغلي.. وهؤلاء الرجال الذين يصلون على بلاط جهنم.. وسئل الشيخ "برهان" عن هذا الخبر فقال: "خليل شاب مسكين مبارك وطيب، لم يعهد عنه الكذب من قبل.. وهذه الكرامة لا تحدث إلا مع هؤلاء المساكين.. وهم أولياء الله.. فتباركوا منه واعملوا بنصائحه وعودوا إلى الله"..

110

العريس والجني- مجموعة  
قصص

نقد وتحليل قصة- "العريس والجني"

بقلم: إياد محمد عامر  
لقد استهوتني قصة أخرى من القصص القصيرة للكاتب الأستاذ نعمان عبد القادر، والتي تنشر في مجلة الميزان

باستمرار دون ما انقطاع. ففي العدد السابق قد نشر للكاتب قصة قصيرة بعنوان "العريس والجني" وكمتتبع لقصص الأستاذ نعمان، شدني لهذه القصة أمر قد كشف عنه الكاتب من خلال نظرتة الواسعة والمتفحصة للمجتمع الذي نحياه. ولعل تفاعلي مع أحداث القصة، كونها تناولت مظهر من المظاهر الاجتماعية التي باتت معششة ومخيمة على بيوتنا هذه الأيام وبشكل لا نحسد عليه.

إننا نعيش اليوم في عصر التمدن والتحضر والرقي، عصر التفجر العلمي والتكنولوجي الذي ارتقى به الغرب إلى أعلى مراتب التقدم والتطور، ومجتمعاتنا الشرقية قابعة في ظلال ما يسمى بالخرعبلات والتي أطلق عليها الإنجليز لفظاً (superstition) ثم أصبحت فيما بعد تسمى (folk beliefs) وفي الألمانية كانت تسمى (aberglaube) (أي الخرافات) ثم تخلى الباحثون عن هذه التسمية وأصبحت تسمى الآن (volks Glaube) فأين نحن من هذا التقدم؟ هل لنا أن نميز بين ما ينفعنا ويرتقي بنا إلى ما يرضاه لنا ربنا، وبين الذي

### 111

يهوي بنا إلى الحضيض ويبقينا في أسفل درجات السلم؟ فهل كل ما نعتقده من معتقدات نافع ويخدم ديننا، أم هي خرافات وعادات آمنة بها وسلمنا بها كجزء من تراثنا وحضارتنا؟ إن ظاهرة اللجوء إلى السحرة والعرافين والكهنة أو ما يسمون بالفتاحين وال دراويش ، ظاهرة خطيرة في مجتمعاتنا، حيث استخدمت هذه الوسائل -وسائل السحر- للمس بالآخرين والإضرار بهم. وكم من ضحية وقعت في شباك أولئك المحتالين، وكم من بيت خرب بسبب دسائس المشعوذين. فمتى كان اللجوء أيتها النساء إلى السحرة إنقاذاً لكن ولأولادكن مما يعانون منه؟ أين اللجوء إلى الشافي وهو الله؟ ولعل في قصة



"العريس والجنّي" تجسيداً حياً لواقع مرّ يعبر عنه بطل القصة "رامي" بدءاً من معاناته ومرضه الذي سببته له "وظفة بنت موسى الكندرجي" إحدى جارات عروسه التي لجأت للمشعوذين واستخدام الجنّي "شاؤول" بهدف تلبس رامي والمسّاس به والتفريق بينه وبين عروسه وانتهاءً بخروج الجنّي من جسده واستقرار حالته وتمّثله للشفاء بعد خروجه منه.

لقد استهل الكاتب قصته بمونولوج داخلي دار في خلد صديق رامي "محمود". فعبر عن موقفه المتردد والحيرة تغمره، حيال أزمة صديق رامي، فحمل وبشدة على أولئك الناس الذين يؤمنون

## 112

بالخرافات والخزعبلات وانتقد النساء والسحرة معللاً ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتبساً آيةً من كتاب الله عز وجل من سورة يوسف: "إن كيدهن عظيم"، ثم اهتدى إلى الاستعانة بالشيخ رفعت الذي يعالج بالقرآن الكريم وهو الحل الأنسب والمناسب، فتحسنت حالته وردت إليه بسمة الحياة والسكينة والهدوء.

لقد تابع الكاتب أحداث هذه القصة مستخدماً الأسلوب السردي. ولم يقف الحد عند السرد وإنما جاور السرد الحوار الذي كان يطول مستوفياً جوانب الفكرة حيناً "لأنها كانت تكره أم عروسه عبلة.. وقد أرادت أن تفرق بين رامي وعروسه.. وهي ترغب في أن يتزوج ابنتها {جميلة} بنت العشرين". وكان يقصر حتى يكون جملة واحدة، وربما كلمة واحدة "أخرج" حيناً آخر. كما وجدت في السرد والحوار النجوى الداخلية، أو حديث النفس الذي كان سبيلاً إلى نقل الخواطر الذاتية والكشف عن موقفه الحقيقي تجاه الشخصيات والأحداث.

فكان الحوار تعبيراً عن موضوعية ملحوظة، وعن أبعاد المواقف. كما كان السرد مجسداً لفكر الكاتب وثقافته وإن غلبت عليه فكرة الوعظ التي وقفت من وراء هذا العمل الأدبي. فالتوجيه والإصلاح كانا دافعين إلى كتابته وهذا ما نلاحظه عندما

113

عاد مرة أخرى إلى المونولوج الداخلي متمماً ذلك بالعرض السردى... إن الكاتب أكد على المضمون الضمني للقصة من خلال تكرار كلمة الجن الشياطين في بداية عرضه للقصة ووقت نهايتها. وتشهد القصة أن صاحبها {الكاتب} قد اختار الألفاظ السهلة لتقريبها مستخدماً أسلوباً سليماً خالياً من التعقيد وغريب اللغة لتقريبها من الواقع والعامية، مبتعداً عن المصطلحات الأعجمية وغير مستخدماً للغة العامية حتى لا تهبط القصة إلى المستوى الأدنى..

لا شك أن الكاتب قد استخدم تعابير فيها نوع من السخرية irony مثل "تويوتا"، "المحتفلون"، "وظفة بنت موسى الكندرجي"، "وأشبعته ضرباً"، كما وألاحظ أن الكاتب مغرم بالتعبير المجازي رغم عدم الإسراف به كثيراً في هذه القصة، حيث ينسج بعض الاستعارات حتى تظنه يتكلم عن شيء آخر غير موضوعه، وإذا به يعود إلى الموضوع ويوالي تصوير الموقف من جديد ويجسد روح العصر والظروف التي تعيشه شريحة من مجتمعنا.

لقد بدأت أحداث "العريس والجني" من بعد المغرب حيث أديت الصلاة في مسجد جامع الثبات ثم الانتقال إلى غرفة العلاج الخالية من الأثاث حيث البدء في العلاج الذي استمر ساعتين ونصف الساعة. إن هذه القصة تصور موقفاً ملتزماً لكاتب ذي رسالة حرص

114

على تقديمها بصورة مقبولة غير مملّة، مستعملا وسائل الفن القصصي التي تبدو ذات ملامح واقعية.  
(هذا المقال نشر في مجلة "الميزان" العدد السادس كانون الأول من عام 2005)

115

تعليق على قصة حقيبة السفر

بقلم: أحمد ناصر

ولقد أدهشتني حقيقةً قصة حقيبة السفر للأستاذ نعمان إسماعيل فعلا. ربما لأننا لم نعد نقرأ مثل هذا النوع من القصص التي تثير وتحرك وتهز مشاعرنا. وربما لأننا ، نحن العرب، ما زلنا نقبع تحت تأثير أزمة نفسية عصبية تميزت

بالقلق والتغير والفوضى وذلك بفعل التغيرات السياسية والتحويلات الاجتماعية التي طرأت على بنية المجتمع العربي في إسرائيل. وربما لأننا ما زلنا نحاول الخروج من جوف هذا الليل المدلهم ومن ترسبات الماضي الموجه، آمليين أن نبعث الأمل في القلوب والعقول من جديد.

يقدم الكاتب في هذه القصة القصيرة صورة حية لجانب من جوانب حياتنا الاجتماعية، إذ يعالج أزمة نفسية حضارية عصبية توجب الالتفات وإعادة النظر وصياغة بنية اجتماعية جديدة. فمنذ نكبة فلسطين وهزيمة الأمة العربية عام 1967م، والشباب العربي في بلادنا يعيش أزمة حضارية صعبة، وصراع مرير ما بين قبول الثقافة الغربية التي تبشر، ومن وجهة نظره، بالتقدم العلمي وتفوق كل تصور، وبخاصة تصور المثقف العربي الذي وقف باهتًا عاجزًا مذهولًا

## 116

أمام ما يراه من تطور وخلق وإبداع في حضارة الغرب، وجمود وثبات وتخلف هنا في الشرق العربي، هذه الأزمة لا شك كانت وليدة ظروف سياسية وظروف اجتماعية أدت إلى تفشي بعض الظواهر التي تثير القلق، مثل ظاهرة نزوح الشباب العربي من بيئته التقليدية ذات الطابع الحضاري الشرقي، إلى بيئة أخرى حيث لا يوجد قيود، لا على الفكر ولا على الحركة سعيًا وراء الزواج من الأجنبيات، الروسيات خاصة. هذه الظاهرة التي أصر كاتبنا أن يخوض في عرضها ومناقشتها عن طريق القصة القصيرة. ونعتقد أن الأستاذ نعمان عبد القادر قد وفق، بل نجح إلى حد كبير في هذه التجربة، إذ استخدم الكثير من الوسائل الفنية واللغوية التي تلزم القاص المتمرس. ومما لا شك فيه، أن إثارة هذه القضية الاجتماعية تحتاج إلى

جرأة كبيرة، وتعامل واقعي، وجدية لا تهادن المجتمع العربي الذي يعيش فيه الكاتب وإن كان هذا المجتمع تقليديًا. حقيبة السفر: قصة شاب عربي (محمود)، يرى بأن لا مستقبل له ما دام في قريته "قرية الرمان" أبوه وأمه، شوارع البلدة، فهيمة وفاطمة... أجل فاطمة التي تحمل في كلامها وعتابها كل المعاني الصادقة الشفافة، العادات والتقاليد والتراث العربي الصادق.. وهي الماضي بكل ما تحمله هذه الكلمات من معانٍ عظيمة وهي... وهي

117

حقيبة المدرسة. الآن!!!، القرية لم تعد تتسع لمدى طموحاته وأمانيه وأخذت تلعب في رأسه الأحلام والآمال فقرر احتضان حقيبة سفره بين ذراعيه والتي ترمز إلى الحضارة الجديدة المتمثلة ب"تال" الفتاة اليهودية ذات الأصل الروسي، "تال" .. الفتاة الجميلة التي أعد من أجلها حقيبة السفر.. والسؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال هو: لماذا اختار الكاتب، بالذات، فتاة يهودية وروسية علمًا بأن هناك البعض من شبابنا العرب متزوجون من ألمانيات، فرنسيات، رومانيا... إلخ؟! لعل الكاتب أراد أن يضعنا أمام مقارنة ما بين زخارف الحضارة الغربية الجميلة التي تبعث المسرات في النفوس وتبث المتعة في العيون إلى العمل والإبداع، وبين الفتاة الروسية المتميزة بقوامها المغربي وبجمالها الفتان الذي يجذب العيون ويلفت الأنظار. على الرغم من هذا الزخم من فوضى المتع والمسرات والحياة الصاخبة التي ما زالت تقرر طبولها في أذني محمود، إلا أن هواجس مجهولة شديدة الوقع بقيت تدفع به غير مستأذنة لتدخل بوابة ذكريات الطفولة، إلى حيث فاطمة التي خطت التجاعيد وجنتيها، إلى الأب والأم، الماضي البعيد وجدران القرية. أفاق من سباته وقرر أن يعود.. سار

باتجاه قرية الرمان عائداً، في الزمان والمكان، يتأمل كل جسم يلوح له على حواشي الطريق عليه يتذكر.

118

ولعل أكثر ما يلفت النظر في قصة حقيبة السفر هو المستوى الذي

سعى إلى المزج ما بين واقعية الكلمة وبين رمزيته. فما نلبث أن نلمح المستوى الواقعي حتى يطفو على السطح المستوى الرمزي الذي تسلح به الكاتب وأجاد استخدامه خير إجادة. إننا هنا أمام لغة غادرت دلالاتها المعتادة وأخذت تلعب دوراً غير مألوف. فحقيبة السفر ما هي إلا تال، وحقيبة المدرسة ما هي إلا فاطمة. وما الأب والأم إلا رمزاً للتراث البالي القديم المثقل بأعباء الماضي، وما محمود إلا ذاك الشاب التائه الذي لا يطيق الانكسار على عتبة المستقبل الغامض المجهول، ولا يستطيع الرجوع إلى الماضي المفتت. لقد ضل محمود الطريق. "الأمر غريب، الدنيا تغيرت"، "أين أنت يا قرية الرمان؟" ... هل يجد محمود طريقه إلى قرية الرمان أم يبقى سائراً تائهاً حائراً يسأل عن الطريق؟... الإجابة على هذا التساؤل صعبة، بل قد تكون غير معروفة. هذا ما سنعلمه في الجزء الثاني من هذه القصة والذي سينشره الكاتب في العدد القادم. لكن ما نعرفه حقيقة ودون أدنى شك أن محموداً لا يستطيع أن يحمل حقيبتين. فأيهما يحمل حقيبة السفر أم حقيبة العودة؟!!!

ثم يصير الأستاذ نعمان عبد القادر، في تنمة قصة حقيبة السفر، على متابعة طروحاته في موضوع الأزمة الاجتماعية والسياسية

119

التي مرَّ بها الشباب العربي في إسرائيل والبقاء في دائرة الصراع الشديد ما بين قبول الحضارة الغربية الغازية مختلفة الجذور وما بين الحفاظ على التراث العربي الأصيل. فمحمود بطل القصة لا يزال يعيش هذا الصراع وما يزال يجهل الطريق متخبطاً في بحث استحواذي، يحلم في إيجاد السبيل لتحقيق ذاته وتثبيت قوميته. لا غرو في ذلك، فمنذ النكبة عام 1948 وحتى أحداث أكتوبر 2000 والشباب العربي في إسرائيل يسعى ويبحث عن هوية قومية اجتماعية قد ضاعت في خضم من الأزمات السياسية والاجتماعية القاسية التي عصفت به... هذا الفشل المتكرر في الصراع أو ما عرف بالنزاع العربي الإسرائيلي على مدى تعدي الخمسين عاماً، أصاب الأمة العربية عامةً، وعرب إسرائيل أو فلسطيني الداخل خاصة، بالإحباط والنكوص الفكري، مما جعلهم يبحثون عن بديل يعيد لهم عزتهم وكرامتهم المسلوبة. ولعل اندفاع الشباب العرب، وخاصة المثقفين منهم، نحو تثبيت هويتهم القومية والاجتماعية قد أثقل كاهل المجتمع العربي في إسرائيل بأيدولوجيات فكرية ودينية كان هدفها الأساسي، على الأغلب هدفاً سياسياً... لم تتبن جميعها قضية الصراع الديني والفكري فحسب، بل تبنت قضية الصراع العربي الإسرائيلي بصورة خاصة. فلو عدنا إلى أحداث القصة نرى أن الكاتب قد جعل محمود

120

يدرك معنى التجربة، لذلك قرر أن يعود إلى القرية، إلى الماضي الذي ما زال يملأ قلبه وفكره. كل ذلك بعد أن خاض التجربة، تجربة البحث عن هوية أفضل، عن هوية جديدة تعطيه الأمل وتحقق ذاته... فلماذا إذن يجعل الكاتب نهاية

القصة مفاجئة، في حين أن معنى كلمة العودة ترمز دائماً للسعادة والبهجة والسرور، فمن منا لا يسعد لعودة حبيب أو قريب؟ ولماذا يصر كاتبنا على حرمان أهل القرية من تلك السعادة التي طالما انتظروها. ينتابنا شعور بأنه لا يمكن أن نفهم من هذا التصور كله إلا أن للكاتب نظرة تشاؤمية وتصور مضطرب حول مجتمعه التقليدي، كأن به يلقي عليهم بأسباب البلية وأسباب هذا التخلف والفشل. فهو يسعد لشقائهم ويخل عليهم بالسعادة التي لا يستحقونها من وجهة نظره، فهم الجاهلون المتخلفون. والأهم من ذلك، أن محموداً قد مات دون أن يحقق هويته ودون أن يسعد بتحقيق ذاته. فهل يستحقونها هم؟!

أما من ناحية الأسلوب والمستوى اللغوي الذي استخدمه الكاتب في هذه القصة القصيرة يمكن أن نشير إلى أن الكاتب يسير في منحنيين متوازيين. فهو من جهة واحدة، يكتب بلغة ذات تعابير عالية: الشمس الأيارية، سويغات، طلائع الشوق، وطدت أقدامها، انبروا يتبادلون أطراف الكلام، غير أبهين، تولول... إلخ، ومن جهة ثانية

121

يسعى الكاتب إلى تطعيم النص بلغة وتعابير عامية تلائم لهجة القرية: شو مالو اتأخر... يا ريت يا سعيد لو ترفعلو تلفون وتشوف وين صار. غريب هذا مش صوت محمود، الو مين.. الشرطة، أخذتو سيارة الإسعاف، وين صار، النمرة غلط... إلخ. وهذا الأسلوب الذي تسلح به الكاتب، إن دل على شيء فإنما يدل على فهم عميق لأحداث القصة التي تبدو لنا، منذ الوهلة الأولى، قريبة من الواقع.

مرة أخرى، مر محمود في محطات زمانية-مكانية مهمة. بحث في القرية فلم يجد ذاته، فخرج يبحث في



المدينة بعيدًا عن أهله وعاداته وتراثه فلم يجد أيضًا ما ذهب لبحث عنه. وما زال يبحث.. مات محمود قبل أن يعرف الحقيقة، حقيقة الأفضل... ولكن ما نعرفه نحن حقيقةً أنه عاد مثقلًا تعبًا، يجرجر أذيال الهزيمة، كأسير يحاول أن يعبر الحواجز دون أن يكسر القيود. وكيف لا يعيش الشباب العربي هذه الأزمة وقد أثقل مفكرون وأدباءنا كاهلهم بأيديولوجيات فكرية عصرية.

هذا المقال نشر في مجلة "الميزان" العدد العاشر شهر تموز 2005

\*\*\*\*\*

122

العريس والجني -  
مجموعة قصصية

هذه هي المجموعة القصصية الأولى، والتي وضعها الكاتب من خلال تجاربه ورؤيته وملاحظاته وتأملاته لما يدور في مجتمعه من أحداث.. وتحتوي المجموعة على ست عشر قصة أولها "الهوية الضائعة" وآخرها "الإشاعة" بعضها يعرض ظواهر اجتماعية موروثية امتدت جذورها عميقًا فأصبح من الصعب علاجها، وظواهر أخرى اكتسبت مع تطور أنماط الحياة وتغير حالة المجتمع من مجتمع ريفي يعتمد في معيشتة على الزراعة إلى مجتمع متمدن -يواكب زمن التطور في ظل ما يسمى اليوم بالعولمة التي بسطت نفوذها على معظم أقطار العالم- يعتمد على الصناعة والتجارة... والبعض الآخر يعكس المعاناة والصراع النفسي الذي يعيشه العرب في إسرائيل إثر التصادم الحضاري والفكري والوضع السياسي المؤثر وشعورهم بالتمييز والظلم والإجحاف..

فها نحن نراه يأخذ عينات من المجتمع ويصورها تصويراً  
دقيقاً .. ويختار الشخصيات المناسبة التي تؤدي دورها على  
أكمل وجه ثم يدخل إلى أعماقها فيكشف خفايا أسرارها  
فتنطلق الأحداث لتجري بصورة طبيعية دون أي تدخل من  
جانبه لتكتمل الصورة شيئاً فشيئاً فتظهر في مظهرها  
الحقيقي الذي هو أقرب إلى الواقع...